الجـرح

مجموعة قصصية

المؤلف: د. حسن البنداري

العنوان: الجرح (مجموعة قصصية)

الناشر: مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

الطبعه الرابعة ٢٠١٣

الناشر

بورصة الكتب

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف- القاهرة

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٢- ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٨٧٦٦

الترقيم الدولي: 978-977-5016-44-7

حقوق الطبع محفوظة

صدرت الطبعة الأولى عن لجنة النشر للجامعيـــين ، القاهرة، عام١٩٧١

والطبعة الثانية عن مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، عام١٩٩١

والطبعة الثالثة عن دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، عام٢٠٠٨

تصميم لوحة الغلاف : للفنان. عطية الزهيرى

الرسوم الداخلية:

في القصة الأولى : للفنان د. كمال السراج

في القصة الثانية : للفنان د. زكريا الزيني

في القصة الثالثة : للفنانة د. زينب السجيني

في القصة الرابعة : للفنان د. سامي رافع

في القصة الخامسة : للفنان د. عبد الرحمن النشار

د . حسن البنداري

الجـــرح

(مجموعة قصصية)

الطبعة الرابعة

الناشـــــــــر

بورصة الكتب

مكتبة

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف- القاهرة

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣- ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

البنداري، حسن.
الجرح: قصص/ حسن البنداري. -ط١.- القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع،٢٠١٣ .
ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ٧-٤٤-٥٠١٦-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص العربية القصيرة.
أ- العنوان.

٨١٣,٠١

الفارس والعسكري

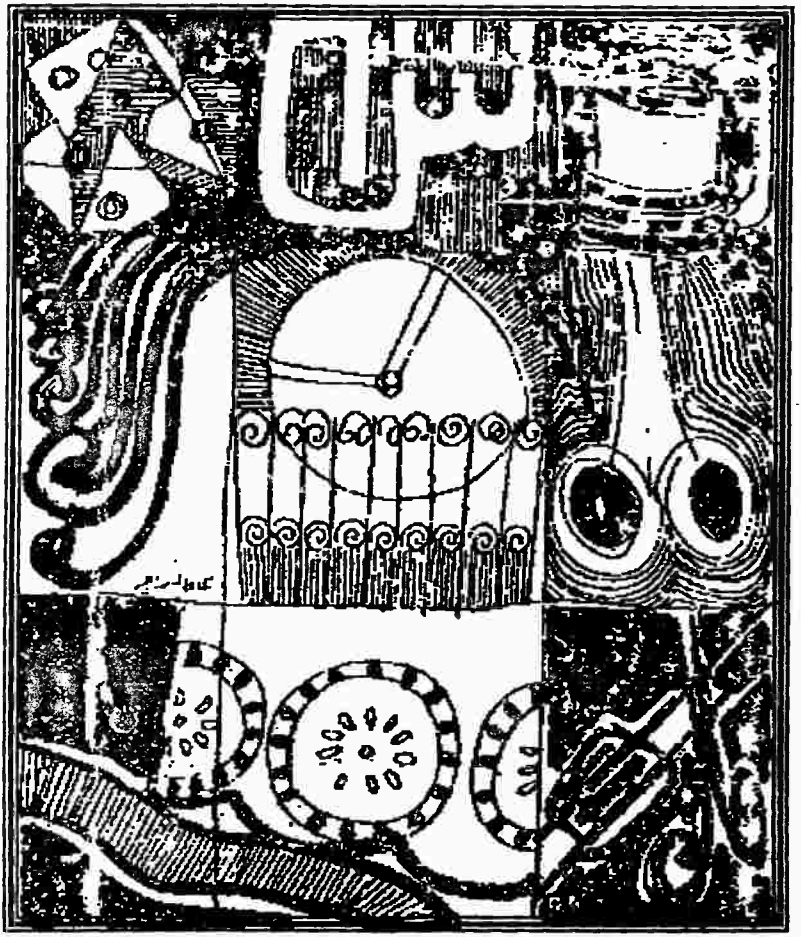

الفارس والعسكرى

(١)

.. والميدان معبأ بالشمس . دائري . يبدو من الثالث أكثر استدارة ، والجواد الشامخ مغروس في القاعدة تتوسط السياج الحديدي القصير فوق خضرة ذات زهور رمادية .. كانت بيضاء ، وراكب الجواد الشامخ ما زال يشير بكف متصلبة إلى "يافطة" الشركة، يرميني منذ ألف عام بنظرة واحدة حمراء . متحدية ، كانت صافية. تثير في النفس عواصف الغضب ، وعسكري الإشارة رمادي .. كان أبيض . يتحكم في حركة البشر بلا سأم، فيتولى الميدان نظام رتيب

يضجرني . تفرج الإشارة عن الطريق لتعود إلى شـلّه مـن جديد. خرج النفس من الفم .. عاد النفس إلى الفـم .. لعبـة مسلية لمن يمضي مليون ساعة في الجو الشمسـي، بينمـا لا تكف ساعة "الأوبرا" عن التذكير بالرجل.! غادر .. غـادر .. غادر .. غدر بي، غدر بي، غدر بـي . لمـاذا بعـد الأيـام والشهور والسنين غدرتَ بي؟!..

(٢)

أعيد أشعة عيني للحظة ثم أسقطها على المسافة الممتدة بين قاعدة التمثال وصندوق الإشارة. ضوئية. قصيرة . كـان رجلى يشغل المسافة بطوله وعرضه . كان فخمًا وجميلاً . بين الاثنين يبتسم وينحني فأقفز إليه. فما رأيت باب الشـركة، ولا أحسست بهبوط الدرج . فقط بمجرد أن يبتسم وينحني أجـدني بين يديه . يتأبطني فأسبح فوق الأشياء حالمة غائبة نائمـة لا يوقظني إلا وجه أبي الطيب ..

يحييني أبى دون توقف عن ترتيلاته وأوراده، يـدعني لأطفاله . مبعثرون في الصالة . يتسابقون نحـوي بصـراخ رفيع:

- أبله جت . هات الحلوى ، الحلوى، الحلوى .

فأستجيب للوجه الطيب والأصوات الرفيعة، لأنني عاقلة ووقورة ومسئولة .

- المعاش قليل . قليل لا يكفي . علمتك لتقتني من حلول هذا اليوم .

فأهرع إلى حجرتي أغلقها لأنسى ، لكنني سرعان ما أغمض عينى فأضل في صفير حاد بأذني، وكائن خفي لذيذ قبيح يرهقني حتى النوم على صوت ساخر بداخلى سمعته من قبل :

- يا فرحة الوقورة بالبكالريوس ، يا فرحتك .

كيف أفرح والرجال يأتون ، وينصرفون ، ولا يعودون؟! ، فأحزن وحدي وأحزن، وأصرخ في سري وأصرخ : متى يعودون ؟ متى تعودون ؟! ..

ولا أم لتستقبل الأسرار . بعد الوفاة وقبل الأربعين أحضر الثانية أبي الحزين . همس بحزن :

- أنا أنفذ رغبة المرحومة .

هو ينفذ رغبة المرحومة.!! ما جزاء الكاذب على الأموات؟! . شابة وجميلة زوجة أبي . جسدها دائم الحركة يتحدى كل البشر ، بينما أسأل مرة أخرى : لماذا لم يعد من

شاهد ، وقلب النظر في الجسد ثم انصرف ؟!. لكنني أصـــرخ في سري : متى يأخذني ؟ . متى تأخذني ؟ . عبدة له سأكون. عبدة لك سأكون . همست في حجرتى أثناء وحـــدتى .. أكلـــم صديقى الذى غدر : يدك جريئة وماهرة تزيل كل أثر . مسافة طويلة قطعتها معك . فلماذا بعد الأيـــام والشـــهور والســـنين غدرت بي ؟! .

الثانية إلا الربع . ساعة الأوبرا دقت مرة واحـــدة؛ لأن الساعة بلغت الثانية إلا الربع . أبعثر نظراتي القلقة في الميدان تبحث وتنقب . أين رجلي أين ؟ . المسافة خالية بـــين مكـــان العسكري الرمادي والتمثال المغبرّ . أين صديقي أين؟! . أنـــا السبب . عملت بالوصية : "حذار من أن تفقدي احترام الرجل". نصحتني كاتبة "حواء" فتبعتها ، "وصوني نفسك لـــه" . كاتبـــة المجلة نظرية قليلة الخبرة، ولّى صديقي .. هرب ولم يعد . لن تهرب منذ الآن الحسناء . لن تستمع إلى نصائح أحـــد . الآن فليعد الساحر ليحتوي المسحورة ، عُدْ . احتوِ المسحورة . الجأ بها إلى الظلام الأخير ..

لكن الوقت سيمر دون لقائه كما مر زمن الأمس وقبل الأمس وقبل قبل قبل ... أف . وأرفس الأرض فأهتز. اهتـــز

جسد الحسناء. الحمالة اليسرى على مقدمة الكتف . أتأملها لبرهة وأبتسم. الحمالة سوداء تحت البنفسج. أرفع يدي وأعيد الحمالة . وأجعل زجاج النافذة مرآة مؤقتة. أراني جميلة . الصدر مشدود ، صلب وممتلئ. والحجرة والممر أمام الباب يغلفهما صمت مريب. خرج الموظفون . خرجت الموظفات . ينتهي العمل في الثانية . باق خمس دقائق .. خلت الحجرة والممر وغلفهما صمت مريب ..

وفي صالة البيت كل ليلة أنصت في الصمت المريب . استمع إلى أقدام حذرة خلف بابي المغلق ، فراقبت . راقبت المرأة بجمالها الذي تحدى كل البشر . زوجة أبي تخرج من الشقة، متلصصة حذرة في كل ليل مصاب بالصمت المريب . لاحقتها . أنا جاسوسة ناجحة . أبي يا مسكين : المرأة عند الجار . أبي يا طيب يا مسكين. صارت عينا الجار – أيضًا – تشتهيني .. أبي . الجار . احذر . شمشون يمسح شاربه، ملطخ بروج المدام . لكن ما ألبث أن أسكت، أجتر صرخاتي فأصاب بوجع الدماغ .. وعندما تحتويني عينا صديقي الذى غدر أنسى كل شيء . أين صديقي أين ؟. لماذا بعد الأيام والشهور والسنين غدرت؟! ..

(٣)

الجو خال . الجو خال . ضلفة زجاج النافذة المفتوحة مرآة تعكس نصفي الأعلى أتأمله . هكذا كان ينظر صديقي . أتراجع وعيناني في المرآة . أضحك ثم أعود إلى المرآة بينما نظراتي تنزلق من فوق البلوزة البنفسجية . هكذا كان ينظر الرجل ..

أدير رأسي بسرعة على حركة خلفي . خصلة من شعري الأشقر انفصلت . أعيدها وأنا أتابع الساعي مصدر الحركة الآتية من خلفي . أزرار صفراء . وجه أصفر . السترة صفراء مفتوحة . شعره بالصدر العريض مدبب . كثيف . أطمئن مرة أخرى على أزرار بلوزتي . لكن عيون الساعي تتكئ بجرأة على صدري . يواجهني . عنيف . تنبعث من شعر صدره العريض المدبب رائحة غير عطرية . همس بوقاحة :

- افتكرت .. إنك .. خرجت .

قلت في نفسي أبتسم : خبيث وكاذب لا أصدقك . وأهرع إلى مكتبي دون كلام راسمة ابتسامة جامدة . قال بوقاحة :

- دفتر الوارد .

أسند باطني كفيه على حافة المكتب . نظرت . ظاهرا الكفين أخضران .. أجلس بضيق خلف المكتب متوقعة أن يمطرني بأشعاره :

- "أنا أقرض الشعر يا آنسة"

فتساءلت معجبة :

- حقًا ! .

فتوالت منه الأشعار، وأنا أحب أن أسمع. وقلت :

- أنت موهبة مدفونة .

ويقول:

- إليك أيضًا هذه القصيدة .

فأسمع . وأنا أحب أن أسمع . وحدثت صديقي عن قصيدتي الساعي : "الشمس المذبوحة" ، "القمر المطعون"، وقصيدة "الحزن الكوني" :

أبي أبي أحزان هذا الكوكب

ناء بها قلبي الصبي

فقال صـــديقي مستنكراً :

- كيف ؟! ، لست له هى لشاعر كبير .

فمزقت كل أوراق الكاذب . أصيح به وأنا أمـــد يـــدى بـــدفتر الوارد فى ضيق واضطراب :

- الدفتر .

لكن لم يسحب كفيه . ظل يحفر في بعينيـــه فـــى صـــدرى . أضطرب : فليذهب الكاذب . فليذهب الكاذب . يغـــزو أنفـــي عرق الصدر العريض المدبب غير المعطـــر . أصـــيح فيـــه محتدة:

- تريد شيئًا آخر ؟! .

فيتراجع دون أن يحول بصره عن صدرى . ثم يسرع. يجرى . تابعته بغضب .. لا يهمني ساعي الصعيد الأصفر. لا يهمني.. لا يهمني في شيء .. لكن سرعان ما غزتنى نظرات عينيه فأبتسمت ..

(٤)

أمد ساقيّ راجعة بالمقعد إلى الوراء . إلـــى الحـــائط . فبدت ركبتاي مكتزة بلا عظام ، فأضحك وأعـــود بالمقعـــد . أنهض وأمضي إلى النافذة . أنا راضية . أجلـــس فـــوق رأس الفارس الشامخ . مركز مراقبة ممتاز ومناسب . فقط التمثـــال والإشارجي وحركة الميدان التي لا تتوقف ..

ساعة الميدان المنذرة بالخطر تهرع إلى الثانية ، فأعيد بصري إلى الزجاج المرآة يعكس وجهـــي الصـــافي النـــاعم. وأتذكر ؛ "الأندلس" . حديقة ضمتنا ذات مساء ليلـــى.. تحـــت التعريشة المضاءة قال صديقي : أنت جميلة ولطيفة ورائعة . أصدقه . ينسيني الزوجة الخائنة المحصنة بالقرص الســـحري بعد أن ينام أبي العجوز . ويكرر صديقي : أنت جميلة ولطيفة ورائعة . فسمحت ليده أن تمتد وتلفني، بينما ارتفعت الأخرى إلى سقف التعريشة تقتلع المصباح . قال والظلام يجمعنا :

- لا أستطيع أن أتزوج . ويمكن أن يظل الحب بلا زواج.

فوافقت الحسناء . وافقت . لكنني مضيت غير قانعة إلى بيتي لتغيبني أمواج الظلام المؤقت . نمت ليلتها حزينة. لكننى ذهبت وقابلته في اليوم التالي . وعندما أعاد على سمعى كلامه عن علاقة بلا زواج هربت من يده ونظراته رغم إلحاحه وغضبه . وسمعت ليلتها صوت أبي: "قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن" . وسمعته يقول: الزمن الأول موعود. صخور الجزيرة لوحتها الشمس والريح . فصاح الثائر في وجه المد الزاحف : أنذر القوم بأكبر الغضب . لكن داسته الأقدام . أقدام لا ترحم داسته ، وأخرسته أيد صنعت باب حديقة مشبوهة . .

بباب الحديقة يا أبي عسكري يقطع تذاكر العشاق . يدخلون إلى "التعريشات" المضاءة المظلمة . تعلو رأسه لافتة : "رسم الدخول ٢٥ مليمًا" . نظر إلينا بخبث وأفسح الطريق . وسمعت صوت أبي يقول : "وليضربن بخمرهن على جيوبهن". أنا مستعدة . لكن يا أبي ستحاصرني ساخرة شفاه المدينة العصرية بكلمات : تطور عكسي . خالف تعرف . حركات. وأنت يا أبي يا طيب : هل تجد العون في القراءة ؟! بصمات شارب الجار على خدي المرأة المهتاجة لا تزال .

(٥)

دقت الساعة دقتين . أصوب إليها بصري . أتوتر أرتجف ؛ الثانية . وأعيد مسح الميدان من جديد . "ياني" . لا أثر للرجل . "ياني" . وتنفض الشركة الآن لتبدأ في الخامسة الفترة الثانية . "ياني" . وكنت أول الخارجين لأراك ولكني صرت أتلكأ لأكون آخر من يراه الساعي يغادر الأبواب الثلاثة. المكتب والشركة والعمارة ..

(٦)

أدنو من المكتب . ألتقط حقيبتي السوداء . وفي الممر الضيق يلاحظني الساعي الجرىء الكاذب بعينيه النافذتين وبحاجبيه الأسودين الغزيرين، وصدره العريض المفتوح عن شعره الأسود السلكى المدبب ويقول ..

- مع السلاااامه .

يطيل اللام . جرىء .. أفهمك . أجيب بهزة من رأسي وأواصل السير . في دقائق صرت في الميدان .. أتعجل نور الإشارة الأخضر لأنماع في الميدان الدائري يتلقى جلد الشمس

بصدر رحب . الشمس لاذعة . سواده تغرس فيه عجلات السيارات، ونعال الرجال المسطحة وكعوب النساء المدببة. الميدان من تحت أكثر اتساعًا..

أرى الإشارجي الرمادي .. مرهق ومتعب . بدلته رماديه .. كانت بيضاء . دائم التطلع إلى الفارس الشامخ كلما وثب النور الأحمر، وإلى المشاة المنتظرين . تتوعد عيناه المخالفين . الجزاء الرادع مصير كل متمرد يكسر الإشارة الحمراء ..

الإشارجي الرمادي .. كانت ملابسه بيضاء . يقذفني بنظرة : لم يأت يا آنسة . ونظرة : أعرف ما بينكما أعرف . فأمشي يضايقني ملح الوجه ويؤذي أذني الضجيج. لكننى أنسى الملح وأنسى الضجيج بذراع تلفني ، آه ؛ سعيت إليك دون إكراه بعلم أبيض . دخلت منزلك بلا فرحة . حطمت جدران خوفي . أستجبت لكلامك الرقيق . لكن رأيت تصميم عينيك : أردتني بلا ورقة!! . هربت برقة ولم أغضب . قالت نظراتى وأنا أودعك .. رغم كل شيء أنا أحبك . لكنك تواريت عني تواريت .. فلماذا بعد كل ما كان بيننا تتوارى عني؟!.

(٧)

لم يحضر .. أخلف الموعد!! . لكن لن يعوق الحسناء شيء . تبحث عيوني عنه . أنظر للعسكري وأمشي . احجزه يا عسكري لو حضر . قل له إنها هنا تنتظر . فهم العسكري: ابتسم . أقصد السور القديم أقلب الكتب بيدي بينما عيوني على الميدان الخالي منه تبحث عنه .. تركتني يده يومًا والتقطت من سور الأزبيكة كازانتزاكي. تأبط "زوربا" بعد أن دفع الثمن . لاحظ غيظي ونحن نبتعد عن السور فأهداني الرواية : "إلى حسنائي فقد تجد في هذه الرواية إجابات كثيرة" قرأت وقرأت . فحفظت سطور الرواية ..

(٨)

الآن تعبت عيوني، وعرق أغسطس يسيل .. يتجول بحرية، وما من ظل يقي وجهي الأبيض . العيون خضراء حساسة تعاني من الشمس . وهاهو يقول :

- أنت جميلة جداً ، ومثيرة جداً .

فأحببته لنلتقي بالأيدي والعيون . ويحملني بعدها الترام القديم إلى حجرتي المحكمة : "كامن في القلب كمون النار في

الحجر" . وتشدني المرآة فلا أهتم "أخفي من أن يرى وأبين من أن يخفي". ملابسي . "السر الممنوح ميراث الـزمن الأول" . تنشط في الظلام كائنات غير منظورة . "أومـن كـان ميتًـا فأحييناه" . لست بقادرة على الهرب من كـلام أبـي الطيـب المسكين . لكن لا يلبث أن يطوى صوتَ أبي الصفيرُ الحـاد، والظلام الثقيل ، والكائنات القبيحة في ظلمات الليالي الطويلـة الموغلة في الطول ..

(٩)

محطة الميدان الثاني تحتضن الزحام الملون . النـاس كثيرون . الترام القديم الصاعد إلى القلعة تركبه الحسناء. شبكة الأسلاك الكهربية المعلقة حاجز بيني وبين الزرقة . لكنه "كامن في القلب كمون النار في الحجر" . فقال صديقي : "لا أمل في الوصول ما دامت الأسوار قائمة" . فقلـت لصـديقي : لكـن "الثائر" صمد، ولم يمنع المد الأسود من توالد الأتباع . فصاح: "اسمعي : ماذا صنع المعلم في زوربا؟ . "النيرفانا" خرافة . لقد أخرج نفسه من دائرة الظل . لقد قادها إلى الجسد" . سـكتّ . خفت . لم أعترض. استلمت لكلامه . رفعت العلم . لكن كاتبة

حواء سرعان ما أطلّت وأنا في حضـــنه تـــذكرني فهربـــت.. هربت. آه.. كاتبة قليلة الخبرة! ..

(١٠)

الثانية والنصف . ساعة البريد دقت . حبيبي على كف عفريت. في نهاية الترام فجرها قنبلة وقت الغـــروب. أكـــره ساعة الغروب .

- "عزيزتي قلننه ما بيننا".

صمتّ لم أعترض، وأجبت في نفسي : يغضبك هروبي وسوف يرجع إليك عقلك ، فلتباركني كاتبة حواء . في قلـــب الليل جلست وحيدة أندب حظي العاثر . فلتباركني كاتبة حواء. بكيت حتى بهتت عيوني الخضر من البكاء. ذهبت إلى الشركة بعيوني الباهتة، صحبتني "سورموليا" أرملة الرواية . امتنعت سورموليا على الرجال وأرادت المعلم . ساعي الشركة اللئيم تحول إلى "دلاّل" بجرس . فتطوعت عيون محمومة لمرافقتي ومراودتي . وتأهبت في الرواية عيون رجال الجزيرة ونسائها للعمل . وازداد الساعي صاحب الأزرار الصفراء جرأة . تدنو وتدنو وتدنو مني الأفواه، يدنو من زوجة أبي كل ليلة جارنـــا الشمشون ..

(١١)

العفريت جالس فوق سطح مظلة المحطة . يده خالية. يبحث عنه مثلي! . المحطة حضر إليها الترام . لكنني لا أصعد إليه . أصعد إلى سطح المحطة باحثة عن رجلي أفتش عنه في الألوان المتعارضة والأحجام المتضادة . أنا تعبت ، وأنا وقور ، وأنا لا أستريح في نومي ويقظتي، وأنا وقور يشقيني الصمت والضجيج. لكن خلف بابي المحكم المغلق يستبد بي الشوق فيتهاوى وقاري المزعوم .

عجلات الترام القديم لا تدور . قلّت الأيدي الصاعدة والهابطة . ينتظرني ؟ . أسمع صوت العفريت الجالس فوق السطح : رجلك هرب ولن يعود . لكن اصبرى سآتي به إليك في طرفة عين . أشكرك . أشكرك. أهمّ بالركوب .. أتراجع ؛ فلأرجع عائدة أمشي في نفس الطريق ؛ ربما ألقاه .. لديّ ما يشده إليّ . محفور في سمعي همسه : أنت نادرة وجميلة وأصيلة وبنت ناس .

أغادر المحطة . أنساب في الشارع . ظهري للميدان وللعفريت . أمشي على خطواتي السابقة متلكئة .. ها هو

الميدان خال منه . عيناي على سنابك الجواد الرمادي . أنا يئست. لا أحد يشغل المسافة بين قاعدة التمثال وصندوق الإشارة . لم يجئ صديقي . تسخن أذناي. وفكرت : الشركة مالت عنها الشمس . ساكنة لا يغادرها الساعي. قادم من بلاد الصعيد . الشركة عمله ومسكنه . نزّت من قلبه الشكوى ذات يوم . صدقته وهو الكاذب . ملت إليه .. الآن أنا لا أصدقه لا أصدق الكاذب. لا أصدق الساعي . لا أصدق أحدًا ..

(١٢)

أتجاوز الميدان بصدر ضيق . أنا مرهقة . أنا مرهقة . أنقر الرصيف المؤدي إلى الشارع التجاري .. شارع فؤاد. "زوربا اليوناني" بالخط العريض . إعلان سينما أخلفه ورائي . الرجال في الشارع أقل عددًا . النساء أكثر . ما سر إشارة الفارس الرمادي ؟ أنا أتساءل . الإشارجي يتساءل . نحن ننتظر الجواب . بطل بطل ، فتح بلاد العرب ، داس الثوار بسنابك خيوله المقتحمة ، بطل بطل . ماذا لو تبادل المكان العسكري الرمادى والفارس الشامخ ؟! حلم لا أستسلم له .

سورمولينا أحسنت صنعًا . "كاتبة حواء" قليلة الخبرة . أرفض نصائحها الآن .. أزيح مجلة حواء بلا ندم ..

الشارع صاخب شديد الحرارة . لا أسبح فوق الأشياء . يضايقني الحر . ذراعي لا تعابثه أصابع الرجل.. "كايرو بالاس". زوربا اليوناني في ثلث الشارع الضيق . على جبهة مبنى السينما يرقص أنتونى كوين البطل رقصة الألم.

أتجاوز الناصية . أتهادى إلى باب السينما . عيوني على أقدام العجوز الراقص . "أنتوني كوين" . "سورمولينا". "المعلم" . الرواية . الصور . والساعة في معصمي قديمة غير ذهبية وغير فضية . الثالثة . و"كايرو بالاس" تحمل أجمل الذكريات ..

(١٣)

أصعد الدرجات الأربع . أدخل . أمرّ بنظرات شاب همّ بمعاكستي . اندفعت بوقار إلى الردهة . نسيت الشاب. تقودني "بطارية" القاعة المظلمة إلى رقم المقعد. ياه . متطرف . بجواره مقعد خال . وممر هابط. أجلس والتكييف يخفف من

العطور الممتزجة بدخان السجائر . أنفي يستقبل الرائحة الرطبة . "حاجة ترد الروح" ..

خدر لذيذ يريحني فأرخى جسدي . أفرد ساقيّ تحت المقعد الأمامي . أتبين بعد المقعد الخالي – صبية بنظارة . ضعيفة البصر . لم يشغل المقعد الخالي بعد . ليكن الشاغل رجلاً . والممر الهابط لا تطأه قدم . ليكن الشاغل رجلاً ..

تشكيلة الرءوس تتابع الآن الفيلم الهام . حسن . المعلم البوذي في المرفأ . ، طرح العالم الأمثل . "وكنت يا نفس تكتفين بالظل ، أما الآن فسأقودك إلى الجسد" . ينتظر المعلم إقلاع السفينة إلى الجزيرة . زوربا يحتضن "السانتوري" . يتوقف عن العزف . يصيح بصوت أجش : "أقوم بشتى الأعمال . بالأيدي بالأقدام بالعقل، فقد تكون نهايتنا عندما نختار عملاً واحدًا نقوم به" ..

الأمواج المخدرة تشتد، يدعوني السقف المظلم إلى النظر : أنا ضقت بالمشاهدة . جفناي يحاورهما النوم : أطرقت . غفوت مدّ يده في القاعة ولمسني فجعلت أنسج في العلم . "زوربا يرى الدنيا بعيني فيل كما لو كانت الرؤية لأول

وآخر مرة" هكذا قال المعلم . "أنا لا أؤمن إلا بزوربـــا لأنـــي أملكه وأعرفه" هكذا قال زوربا .. ليت صـــديقي يشـــغل الآن المقعد الخالي ..

(١٤)

أفتح عيني على "زوربا" وهو يغـــري المعلـــم بلقـــاء الأرملة. "سورمولينا" يتتبعها رجال القرية . هاموا بها. مزقوا ثيابها . بصقت على الأرض أمام الرجال اللّاهـــين بـــالعنزة . "أشكرك" قالتها للمعلم عندما فتح لها مظلة المطر. "أشـــكرك" بلبلت أفكار المعلم . بَحْلق المعلم في "زوربا" الراقص . أبحلق في "زوربا" الراقص . قال زوربا "مات ابني .. مات ابنـــي . فتغلبت بالرقص على الفجيعة" . قال زوربا : "وقـــالوا : جـــن زوربا . جن زوربا". قال زوربا يكلم المعلم ويكلمني "لم لـــم أرقص لمت" ، فأمضى المعلم ليلة الفصح عند الأرملة لتنشـــر في لحظة الهمسة المحمومة، بينما رأيتني أهرب من صـــديقي الذي غدر . سمعت النصيحة ..

ما زال الممر الهابط بلا أقدام . لم يأت صديقي الغادر. لم يأت أي رجل . بينما جارتي الصـــبية تســـتحث نظارتهـــا

الطبية. خائفة على الأرملة. ربما . "سورمولينا" تتلقى الحصى – صابرة – يوم عيد الفصح . ارجموا العاهرة . ارجموهـا. القرية كلها خرجت للرجم . ارجمـوا العـاهرة . ارجموهـا، انتقامًا لشاب أحبها وشاهدها في حضن المعلم فانتحر . أهـبّ واقفة . أغادر القاعة . تعرف قدماي الطريق ..

(١٥)

تسلمني الردهة إلى البـاب . يفحصـونني . تنزلنـي الدرجات الأربع . لا تكييف . الحر يلفحني وأنا أبحـث عـن الشاب الذي تردد في معاكستي . أريـده الآن . يجردوننـي . جماهير الحفنة القادمة . "سورمولينا" هام بها كل الرجال . أنا حسناء وأحب أن يتعقبني رجل .. ذهب رجلي الغـادر ولـن يعود . تتكّر . "فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور" . وتقول إنك أردتني فلم تتخلـى؟!. "إن جسـمي ليس إلا مرضًا وجريمة وشيخوخة وموتاً" هكذا قال "زوربا" . والشجرة الجرداء عجزت عـن حمايـة المـرأة المحاصـرة بالصخور والعيون . وقال في أذني وهو يحتضنني في مسكنه: "ما بيننا أكبر من الورقة". وقال "زوربا" "الاتحاد الشرعي ليس

له طعم . إنه طعام بدون بهار" . وقتها كان بيننا صوت أبـــي وكاتبة حواء ..

عيون الحفلة القادمة تطاردني . نسـيت "سـورمولينا" زمن الحرمان بالمعلم القادم من المدينة . فليتبع الحسـناء الآن رجل . وتقول إنك أردتني فلم تتخلى ؟! . فليتبع الحسناء الآن أي رجل . وابتسمت وبكت الأرملة في صدر المعلم القـــادم مـــن المديـــنة عـــلى مرأى ومســـمع من الشاب المتلصص . آه . أود لو أعود إلى البيت الآن كي يتلو أبي في سمعي قرآنه وأوراده ..

أقدامي تسرع . الرجال جميعًا يسرعون لكنهم يعبرون. يتجاوزون . يختفون لا يطرقون بابنا بعـد أن عـاينوني . لا يعودون. فلماذا لا يعودون ؟! ..

وأنت يا صديقي الذي غدرت : غضبت فلم تعد . هـل يمكن يا أبي أن يعيد صوتك الطيـب مَـن عـايننـي أو مَـن غضب؟! ..

(١٦)

يلوح لي جزء من السور القديم الدائري . بصري عليه. أفحص الناظرين والمشترين والمحركين للكتب القديمة . ليس بينهم .. أنظر في ساعة معصمي ؛ الرابعة. باق على العودة إلى الشركة ساعة . فلأشاهد الكتب وأقلب حتى الخامسة. لا . لا . في أنفي رائحة القاعة . المعلم شم رائحة "سورمولينا" أحتاج الآن إلى سيجارة . أضحك . لم يسبق لي التدخين . فلتكن الأولى والأخيرة. فلتكن الأولى والأخيرة ..

(١٧)

أغشى ميدان التمثال الرمادي . أتضايق . أزداد ضيقًا بتقلب أمعائي . "ساندوتش" الظهر راح مفعوله ؛ نقري يعلو ويعلو . أرى العسكري الرمادي يباشر ويقاوم، بينما التمثال تمثال. السيجارة بفلتر صحيّة .. فلتكن الأولى والأخيرة؛ "تتحرر من الشيء بالشبع منه". زوربا الصغير سرق أباه . سرق الكرز. شبع من الكرز فانتهت متاعبه . وأضحك في نفسي ضحكة الأرملة أمام المعلم وأنا أتطلع إلى يافطة الشركة. حجرتي مطلة

على الميدان وهادئة الآن . استرخاءة السينما لذيذة، حجرتي مزودة بمروحة ولا أحد بالشركة سواه . وأكسر الإشارة الحمراء عابرة الشارع متجاهلة غضب العسكري الرمادي ..

(١٨)

أمشي إلى المصعد . أدخل . مكتوم . وعرقي ينساب بلا رادع. مسامّي هي السبب . تلتصق البلوزة بظهري . المروحة تزيل كل أثر . تجفف . فليسكب أبي الآن في سمعي قرآنه وأوراده . "أبي أبي . أحزان هذا الكوكب" كاذب كاذب ساعي الصعيد . لا أعبأ يا صعيدي بجرأتك، ولا بصدرك العريض الأسود المدبب ..

أخرج من المصعد . عصبية . قبل أن أضغط الجرس انفتح الباب عليه . أفسح لي . الرابعة والربع . قال :

- رأيتك .. وأنت .. قادمة ..

لا أجيب . أجري إلى حجرتي الساكنة .. وأرمي بالحقيبة وسط الحجرة ثم أفزع إلى النافذة بعد أن شغلت المروحة ..

أفتح النافذة . أطل على الميدان . أبصق عليه وأنا مغمضة العينين . لا أرى شيئًا . في لحظة العمى رأيتني أمام المرآة في صمت حجرة منزلي. لطمت أذني أمواج صفير عاتية . لطمت صوت أبي الطيب . برزت "سورمولينا" تلتقي بالمعلم . وأدخل كل أصابعي في أذني لكيلا أسمع دبيب الخائنة، ولكن عبثاً أحاول . وتقول "أنا أريدك" فلم تخليت ؟ وتقول : "كوني" فأكون . فلم غدرت؟!..

كم أتوق يا سيدي إلى الصمت الأزرق!!. لكن الكف الملعونة ترتفع إلى رأسي بالشراسة والقسوة. فأرتد مذعورة إلى الوراء. والمروحة تطيّرني إلى الممر فأطير. ويطير الساعي. وأجري في الممر ويجري خلفي الساعي. أتعثر فأسقط. ويسقط لينغرس في صدري صدره المدبب. أشم أغلى العطور. "جسمي مرضًا وجريمة وشيخوخة وموت" . وها هو الفارس الشامخ يتململ . ينفض عن جسمه وجواده الرماد . صار التمثال أبيض . ينزل الفارس عن ظهر الجواد . أراه يقف بجوار السياج الحديدي. صارت زهور الحديقة بيضاء . فيخلع العسكري سترته الرمادية . صار العسكري أبيض. يلوح له .

يستقبله يسلم الإشارة التي ثبتت على اللون الأخضـــر . اتفـــق الاثنان على المبادلة . صعد العسكري إلـــى قاعـــدة الفـــارس الشامخ وامتطى الجواد . نزل الفارس عن جواده وشغل مكان العسكري ..

نوفمبر ١٩٦٦

أغنيـــة

أغنيـــة

افتح عينيك :

الأسدان في حراسة مدخل الجسر . أقترب من قاعـدة الأسد الأيمن . أجلس ، أسند ظهري إليها وأثني ركبتي . أريح عليها ذراعي . في يدي اليمنى سيجارة مجهولـة الصـنف . أهدأ: لم تعد تزعجك الآن الأصوات المتضادة. تحررت مـن الاسم والثوب والجلد منذ ألف سنة إلى خمسين . نوح أسـلمك الزمام وولّى . من كل زوجين اثنين . سجينة في الفلك عناصر الخلق . فنم فوق الطوفان. فعلت وأنا أسـأل عـن السـلامة المضمونة .؟

افتح عينيك :

عرافة مسنة أنبأتك أن المصير حفر قديمًا في جبهة كهف طمسته الأمواج . لم تصدق النبوءة . أعددت العدة. وزودتك يا ولدي بمعارف سرية ، فقابلتَ يا ولدي مسعاي بأن الغرب يا أبي هو موطن المعرفة والسلامة ، لم ترد غيره بديلاً. لكن ما لبثت أن تبددت معالم الغرب المبتسم، فانصرفتَ متحمسًا يا ولدي عن الأحلام الواعدة :

- لا مفر يا أبي من مواجهة واقع أصرح من أن توصد في وجهه العيون والآذان ..

فجاءت العرافة ، أخرجت لسانها العرافة، أشارت بأن أطلق البخور الهندي ثم أمرتني قائلة: "ألجم لسانك" ، فألجمته . قطعته . وسفحت دموعي على الأقدام المباركة ألف سنة إلا خمسين . وكلما دعاني "كنعان" رحلت . متى عاد "كنعان" عدت . فمتى تعود يا "كنعان" لألغي كل المحاولات ..

افتح عينيك :

فأفتح نصف فتحة . أنظر بنصف يقظة . الزحام يزحف إلى المدخل المحرس بالأسدين . اعفوني . لست أريد جمهورًا ولا أحب المجاملات، المهم أن أعيد "كنعان". ويصيح

بي رجل : انهض . فأنهض . ويصيح بـــي آخـــر : امـــش ، فأتحرك ضاربًا أسفلت الجسر . أنظر إلى قدمي. أتبين ضياع فردة حذائي اليسرى . لكنني لا أعبأ . أتحسس رأسي العاري . فلا غطاء يدفع عن صلعتي سياط الشمس. لا ظل . لا ظـــل . وألاحظ سيجارتي المجهولة الصنف لا تتضـــاءل ، فأهرســـها بقدمي ..

افتح عينيك :

أعور يحب أنثى فوق الجسر . يستندان إلـــى الســـور، يضحكان بدون سعادة . أضحك . أعطيهما ظهري . أمضـــي مبتعدًا عن المدخل . حلقي جاف . هل أستجيب الليلة لملهـــى "هوليود" ؟ أتحمس للشرب . ينسى سريعًا موجات الأســـى .. خاطبني شبح بالملهى وأنا أشرب . حدد المكان والزمان لكنـــه أخلف الموعد . أنا أتحمس للشرب . لا أمل . لا أشـــكو . لا تزال في جسدي قوة لا أبخل بها . والأرض لم تعد رحبـــة . ضاقت . يمكن ارتيادها في ساعة. أنسى نفســـي بـــالخطوات العمياء ..

"الأسود الحداد . أحمرّ وتورم خدا زوجتي ، تساقط لحم الخدين ذات صباح . في لحظة غبية مبهمة لطم الموج الصخر

ألف مرة . في لحظة تالية غبية ومبهمة اجتهدت في فهم أشياء فلم أنجح . سيان أن تكون تسلية أو لا تكون. نـــوح فعلهـــا . أسلمني الزمام . لعنته حلت بمدينتي المشرقة . هل أنا المسئول عن لسانه عندما شكا؟ . رفضتني المدينة رغم حـــاجتي إلـــى نسيان الخبر الخطير . نشدت إلجام قهري في ليلها المرصـــع بالأنوار الملونة بينما كانت امرأتي تلزم زنزانتها تنتظر عودتي ببقية الجسد .. لكن أمرني صوت مقهور بأن لا أعود؛ امرأتي الحزينة المكبلة بالسوداء زهدتني" ..

افتح عينيك :

ضحكات الأعور فوق الجســـر تطـــاردني وتجاريـــه ضحكات الأنثى . غير سعيدة . أقـــف بغـــيظ أبكـــم . تنـــدفع قبضتان وتكسر الرقبة . أخلص الأنثى المقهورة . لا تنكســـر الرقبة . تزداد الضحكات المتحدية ؛ لأني لم أغادر مكاني ، لم أتقدم نحو الأعور خطوة ، ولم أعد ببقية الجسد الذي بعثرتـــه قنابل الغدر .. وامرأتي القابعة في الزنزانة تنتظر عـــودتي . لكن "هوليود" كان البلسم الشافي الذي أنشد فيه السلوى ..

"كانت القاعة مزينة . وكان دخان أزرق ذو
رائحة معطرة ينهمر فوق الرءوس السعيدة .

أراحني . كان اللحم الأبيض كثيرًا. الرجال والنساء هنا لا يفهمـــون . نظـــروا إلـــيّ.. صاحوا : غريب . غريب . تكلـــم التـــراب والعرق والجفاف . تركوني شفقة أو إهمالاً . صرخت . تقيأت دمًا على قفا سيدة بيضاء.. صرخت . صفعتني. فانفجرت رأسي بسباب لا ينقطع . ثم ضحكت حتى توقف قلبـــي . فتعالت صيحات الاحتجاج، وشتائم تســـتنكر وجود القادم المتطفل .

- ماذا نفعل ؟

- نشنقه . ليكون عبرة لغيره .

- ضايقنا .

- أفزعنا .

- تسبب في اختلال السهرة .

لقد أثرتْ اللحم الأبـــيض . هـــل يحتشـــم؟. زوجتي تركتها في الزنزانة محتشمة متشحة بالسواد والحداد . أوقفتُ الأصابع والنظرات

المتحرقة، فتجمد الصياح الضاحك على الوجوه الكرنفالية . شواهد تدين ولا تبرىء. وصرخت بصوت ذي صدى.

- مات .. م ـا ـا ـا ـا ـا ـ ت .

فتسابقت صيحاتهم:

- اطردوه .

فقلت أستفسر :

- هل يمكن أن أجده هنا ..

فتسابقت صيحاتهم :

- ارحل . ارحل . ارحل .

فقلت من بين دموعي :

- ابحث عنه . أحتاج إلى مساعدتكم .

فتقدم رجلان بعضلات قوية . فخفت . انكمشت . وهمست لهما:

- امرأتي حزينة تتوعدني لو رجعت بـــدون كنعان . لكن الصخر كان صخرًا. كـــان أصمَ . وهمست لهما:

- أرجو المساعدة .

- فتكلما بشفاه أربع زنجية .

- هنا لا نرحب بالغرباء .

فتشجعتُ قائلاً :

- هل أخطأتُ .

فكررا :

- هنا لا نرحب بالغرباء .

فصرختُ في الرجال والنســـاء والعضـــلات المتقدمة . صرخت بصوت ذي صدى .

- مات. م – ا – ا – ا – ا– ا – ا – ا ت .

فتقدما . انحنيا عليّ؛ وأنا الخائف المـــنكمش برأسين كبيرتين . التقطاني دمية. نفذا فـــيّ

حكم الإعدام شنقاني بحبل يتدلى مـــن فـــرع
شجرة خارج هوليود" ومضيا إلى الداخل" ..

افتح عينيك :

طوق بشرى . رءوس على رقاب مطاطيـــة تهتـــز . تنهال منها نظرات لا تريح . ماذا حدث ؟ أنا أتألم وأختنـــق. ومت مرة أخرى. ينفخون في فمي بقصد إعادة ضربات قلبي المهاجرة . يريدون إنقاذ المجني عليه . لا تزال السفينة المثقلة بالخلق تسعى إلى المرسى. مجهول . لا شيء محدد يدل على أن الأمور لم تتحول إلى الضد . يقابلونك بملامح رواد الملهى الليلي . الجاني مبهور . يقطع شعر رأسه غيظًـــا . تفضـــحه عيناه. رفعوني من أمام السيارة التي صدمتـــني. وضـــعوني فوق الرصيف، يا ناس . يا نـــاس : هـــو المســـئول . وهـــو المسطول . رمى بنفسه أمام عجلاتي .

ربما . ولا اهتم بما أسمع من همس جانبي متضارب . أنهض . أرى أشلائي الملوثة بدمائي الدافئة . وأقـــف علـــى جوفي المبعثر وأغني :

"توزعت الألوان المتضادة خلال رتابة نظراتي ونحن نحاول أن نصدق الخبر أو نكذبه . لما جاء المندوب وقال: "إن ابنكم ضرب المثل في البطولة والفداء"، صدقتْ زوجتي ولم تصرخ . خلعت الألوان وارتدت الحداد . تربعتْ فوق بركة من الدماء، ومع ذلك طالبتني بوجه أصفر بأن أشد الرحال بحثًا عن البطل لأعيده . ولما أقول لها إن كنعان لم يعصمه الجبل – تقول بعينين باكيتين : ارحل ارحل وعد به . ارحل بعيون مبيضة كعيون يعقوب. فهل نجا ؟ ارحل ارحل بحزن يعقوب. فأتمادى في الرحيل لقاء أن تبتسم . أنا وزوجتي نتبادل الضجر حتى يرجع الغائب الذي بالقطع لن يعود" ..

افتح عينيك :

أنا في منتصف الجسر . يأمرني شبح في نهايته : "أسرع" فأسرع. أركب الرصيف هذه المرة . أخاف الموت.

الغرق . عبرت اللحظة العاقلة، أغشى الفلك التائه وسط الأمواج . أسمع بغير فهم الطنين . أرغب في الجلوس على حافة السور أحاكي أنثى الأعور. لا . لا . أمشي . أجدّف فوق مشاة الجسر بينما قرص الشمس مُحكم فوق صلعتي . قال في أذني تحت قرص الشمس "سوف أعود" . تركني ومضى قليلاً. ثم رجع. قبلني فاحتضنته بملابسه العسكرية . كان متفائلاً .

"ذلك الصباح لم يكن صباحًا عندما أتانا النبأ العظيم. كنت قبلها بقليل أعاني من وهم وقلق. كنت أرى الحداد واقع لا محالة . هجوم الأعداء في حرب غير متكافئة . لما تأكدتُ من الخبر بحضور المندوب قبضتُ على الهواء صائحًا دون أن يخرج مني صوت . وكان نسيج عنكبوت يزحف نحوي بجسارة وأنا أودع المندوب العسكري . نظرت في النسيج الذي أخفى ملابس المندوب العسكري . وجعلت أتساءل عن السلامة المضمونة . وقال شبح في أقصى الشارع المظلم "لقد نظر من ملكوته فإذا

الأرض قد فسدت" وقـــال : "اصـــنع فلكًـــا
وارحل بهم بزمن لا تعرف نهايته" . ولما دنا
النسيج أكثر وأكثر رأيـــت خلـــق الســـفينة
يأسفون عندما عادت الحمامـــة المخلصـــة ؛
أخفقت الحمامة في الوصول إلى الجودى" ..

افتح عينيك :

ها هو أخيرًا مخرج الجسر . في حراسته أيضًا أسدان. لفظ القار المغلي بخيوط الشمس أخّر خطـــواتي . وداعًـــا .. وأبتسمْ لانكسار الطوق البشري . غابت الرقـــاب المطاطيـــة المتحلقة . وعلى أن أسعى خلفك يا ولدي، كما سعوا بحثًا عن الجودى . ولكن اللقاء يا زوجتي العزيزة السوداء عزيز عزيز. أشم الآن البخور الهندي . أطلقها يا ولدي في رواحك وغدوك:

"كنت أرتفع مختالاً إلى قمة برج الجزيـــرة
أتربع فوقها وأنا أسمعهم يتحـــدثون عنـــه .
ولكنه فاجأني ذات يوم بسعادة غامرة . كان
الأعداء قد اقتربوا كثيرًا من شاطىء القنـــاة.

تمركزوا بعتادهم وسواترهم واستفزازاتهم على شاطئ القناة . قال :

- أنا سعيد باستدعاء الجيش لي .

ولما قلت له:

- وأين أحلامك يا ولدي

قال ضاحكًا :

- الواقع على شاطئ القناة أهم وأصرح وأبلغ . هناك يا أبي أمارس بحق حريتي.

ودعته مقهورًا . "عرايا خرجنا عرايا نعود".

ولما قلت له :

- هل أنت سعيد حقًا ؟

أجاب بكل الحماس :

- "لا ندخل العالم بشيء ، فلا نخرج منه بشيء"..

افتح عينيك :

فأفتح على المبهم المبهم المبهم . الأعور يطارد الجميلة. يقتربان من المخرج . يتشاجران بعد أن طارحها في المدخل الغرام . يد تقبض على أنفاسي . كان همسه لها طنيناً يدميني . أود أن أغني . فدعوني أغني . أحن لعرافتي لأريق تحت قدميها قرباني . قالت: "المصير واحد وواضح ومحدد" آه. المبهم المبهم المبهم. دعوني أغني !.

- ابعد عني .

فهوى بكفه الثقيلة على وجهها الجميل وهو يصرخ .

- ساقطة .

آه يجلسون في قاع السفينة ينتظرون البشارة . أسمع صفعة ثانية ذات صدى . الأعور والجميلة يتشاجران. يتفاهمان بالأيدي والأقدام . يتهاويان في النهر . المبهم المبهم المبهم . دعوني أغني :

"زوجتي سألتني مكذبة الخبر الذي هز حتى
ستائرنا البرتقالية . هل حقًا حدث ؟ لم أجب
وأسرعت بالهرب . ضربني الطوفان

الشرس . هرعت إلى السفينة أنضم إلى الفارين . جعلت أرقب معهم ظهور شجرة الجودى . دخلت لا مفر أمام الزمن المتلكئ في قوقعة الغفلة والمبهم. صاح بي في ركن من الفوقعة شبح "هيهات أن يعود . هيهات . في قاع جب تحرسه قوى غير منظورة. استقر. هيهات أن يعود" .

ذات مساء قال لي من بين ملابسه العسكرية "مجد العالم ليس في مركز الضوء . أنت لا تعرف معنى أن يحتويك ليل ومقبرة لا تكف عن دعوتك. تصارع في زحمة الليل وابلاً جهنميًا يصل إلى كل حي . ويكون علينا رغم ذلك تمزيق الوقت بالأغاني. آه . هيهات أن يعود . فدعوني أغني".

افتح عينيك :

عاد الشجار . صعدا من الماء . الأعور ما زال يطارد الجميلة . تصيح به نافرة :

- ابعد عني . لا أريدك بعد اليوم. لا أريد أن أراك

- محال . محال .

- أفضل لك أن تبتعد عن طريقي .

- مستحيل أن أتركك . أنت لى . أنت ملكى . أنت قدرى وأنا قدرك .

- لا تحاول . لا تحاول .

- لابد .

أكرهه . والعرق الممزوج بماء النهر يعلوها يثير في القلب كوامن الغضب ، وأنظر فأرى شطري العاصمة يستعدان لاستقبال الليل .

أقفز في لمحة فأقف بين الاثنين. هدأت الجميلة وابتسمت . توعدني الأعور وأنذر بعقاب مؤكد . صاح بي:

"لا شأن لك . لا شأن لك . أتركنا . ابعد أفضل لك"

يتضاعف غضبي . ولكني أسأل : هل أغامر ؟! . أنا يقظ الآن ولا أحتاج إلى ما ينبهني ولا إلى ما ينسيني. لقد كنت أقبض على هواء لم يستسلم أبدًا لأصابعي، بينما فرح الفارون

في السفينة بالمجد المقبل . ويقول صوت من خلف الليل الزاحف : "وأقيمه في بيتي وملكوتي إلى الأبد". وأتت من جهة الصوت البشارة . عادت الحمامة بورقة من شجر الجودي . نجحت . الأرض . الأرض . الأرض . ويقول الصوت الآتي من خلف الليل "ويكون كرسيه ثابتًا إلى الأبد" . ويصيح خلق السفينة فرحين بالبشارة : "الأرض . الأرض . الأرض" . وأجدني أصيح معهم قائلاً: النهاية وليدة البداية . فدعوني أغني معكم . دعوني أغني . وأقول لنفسي وأنا استعد للمواجهة.

- لابد من وقف الأعور المنذر .

وأكور قبضتي وأنا أغني : الأرض . الأرض . الأرض . ثم أتقدم أكثر وأكثر نحو الخطر المنذر المهدد بلا مبالاة..

نوفمبر ١٩٦٩

المفقـــود

المفقود

(١)

.. الخطوات المجهولة بالخارج مرة أخرى وأنا أتـابع زوجتي تتهيأ للخروج إلى حفل الجمعية الخيري . أنصت إلى . وقع الأقدام : بطيئة مترددة . مقبلة مدبرة على أسفلت الشارع السفلى وفوق الدرجات الثلاثين . أهرب إلى حائط أصم تتشبث به رأس زنجي تعلو صورة لرسام عـالمي لا أهـتم بتـذكر اسمه..

ها هي أخيرًا – في المرآة – تتعطر وتبتسم . تبتسم في صمت يزيد من قهري . لا حديث بيننا ولا همـس ولا حتـى

شجار . تطالعني فقط بابتسامة باهتة مرسومة ومقصودة قاصدة تعويضي عن رؤية المعنى الحقيقي في عينيها الصافيتين ..

وعارضتني لوحة الحائط بإلحاح وهي تسعى نحو الفراش بتردد كتردد خطوات الشارع السفلي والدرجات الثلاثين . تجتنبني اللوحة الفنية والعطر يسبقها إليّ .. تتكئ الآن على حافة السرير كي تطبع على خدي قبلة الخروج ..

فكرت أن أحول وجهي – هكذا أفعل كل مرة – لكن لم أفعل . لا كلام . شيء ما يتصدع . ينهار . ضربات قلبي سريعة ونشطة . وأحبها فأسلم خدي لشفتيها الرقيقتين دون أن تتلاقى عيوننا ولو خطفًا ..

ابتسمت وهي تتباعد . الظهر . عيناي تتجولان على فستانها الأسود المحبوك . لو أرافقها هذا المساء ! . أود أن أكون هناك . وقبل أن تصل إلى الباب وقفت والتفتت إليّ بغير عيون . قالت :

- لا تنس موعد الدواء . الثامنة والنصف .

فقلت بسرعة :

- لن أنسى موعد الدواء . الثامنة والنصف .

فأضافت وكأنها لم تسمعني :

- وعمومًا لن أتأخر .

مضت بجسد ملفوف شاب . لا أراهـا . احتجبـت . رائحة ما تسبح في الحجرة غير عطرها المتميز . لو أرافقها . أحب أن أكون هناك . أنيقة ومثيرة لا تماثلهـا واحـدة مـن النساء. وأبتسم وأنا ألمح على "الكومودينو" مسركية لبيكيـت . انتهيت من قراءتها منذ أيام ..

(٢)

شدت باب الشقة بغير عنـف . خرجـت .. أصـوات القدمين . تهبط .. صوت محرك السـيارة .. قائـدة مـاهرة ماهرة.. السيارة تبتعد . تقلص الآن عطرها الصارخ والليل لم يقبل بعد . ما زال الجو الرمادي يكسو – في الخارج- حوائط العمارات المقابلة . لا أستريح لتسلله إلى الحجرة، فأمد يـدي إلى الأباجورة في هروب . أسكن بالضوء الذي بدد الظلال .. بدد الرماد ..

أغمض عيني للحظة لأفتحهما على ساقي الممدتين بلا حراك.. أتضايق فأقفل النور، عاد الرماد إلى الحجرة، فتنداح

في صدري آهة مهتاجة راحت بجسارة تتمد بـــأذني تجاوبهـــا أصوات رسمية حادة :

- العلاج . العلاج المنظم كفيل بتغيير الأمر وتحقيق الأمان . الأمل مهم . والانتظار واجب .

توجيهات قالولها وولوا . فماذا بعدئذ ؟ أليس لكل شيء نهاية؟ أليس لكل شيء نهاية يا سيدي الطبيب ؟ لكن الطب قال كلمته وسكت . فتساءلت :

- أين الأمل الموعود ؟ أين ؟! .

فلم يجبني أحد إلا بكلمات . وهـــذه زوجتـــي الشـــابة الجميلة عضو "جمعية الأمل الصحي" لا تتحمس كثيرًا للبقـــاء إلى جواري بعد أن أراقت كل دموع العينين لما قالوا:

- الأمل فى الشفاء ضعيف جداً ، ونحن بانتظار معجزة .

فصحت بيأس :

- انشطرت .. انشطرت وانتهى الأمر :

وها أنا الآن أغمض عينيـــا وأرى تفاصـــيل الحـــادث المفاجئ الذى لم أتوقعه ، ولم يتوقعه أحد من المراقبين أثنـــاء السباحة :

"كانت زوارق الإنقاذ على مقربة منا نحن المتسابقين . كان الموج هادئًا .. وكنت أحتل المركز الأول قبيل حدوث اللحظة الحرجة ؛ لقد أحكم الفزع سطوته وأنا وسط الموج الحافل . هاجمني الألم دون استئذان بأسفل الظهر متصاعدًا إلى مؤخرة العنق . "آه . النجدة" . وكانت زوجتي في زورق قريب تلوح لي وتمطرني بقبلات عبر الهواء . "آه آه . النجدة النجدة . الألم الألم . النجدة النجدة". وحلّ بعيني ظلام مخيف وأنا محاط بدوامة من نظرات المعاطف البيضاء : لقد انتهى كل شيء تقريبًا عندما نفضوا أيديهم جميعًا ورسموا على الشفاة إجابة واحدة محددة : لقد أصيب السباح الماهر . شل . انشطرت شطرين . آه. وصحت بالوجوه المتحلقة المحدقة : هل من أمل؟ وكانت الحجرة مكتظة بالرجال .. تنقلت عيناي عليهم واحدًا واحدًا .. فتضاعف همي وودت

لو تختفي زوجتي الجميلة فلا تظهر أمام رجل . أي رجل" ..

(٣)

.. الظلام .. خيالات الطوابق العليا بعمارتنا على واجهة العمارة المقابلة . أرى الخيالات بوضوح . ضحكات خفيفة وناعمة تضجرني . رأس لامرأة وأخرى لرجل تتقاربان، ثم تبتعدان ، ثم تتقاربان ، ثم ..

آه .. الأباجورة هي الأمل . النور . "في انتظار جودو" سحبت المسرحية . قلبت صفحات قرأتها من قبل . أمد يدي إلى الأباجورة: الظلام ثانيًا . هذا أفضل . فأتتبع خيالي الرأسين أمامي على الجدار . الرجل في الطابق الأعلى فوقي مباشرة مجنون بامرأته وهيّ نافرة .. امرأة المجنون شكت لزوجتي إصراره على الغزل الصريح حتى في النوافذ . زوجتي حكت لي . اختنق . يغريني النوم .. أتثاءب :

"تمددتْ معي وسط هلال مئذنة تطل على شاطئ نهر. وكانوا تحت يتحركون بأشكال متفاوتة متضادة .. وبينما كان الماء رماديًا

يغازل بصري.. نهضت زوجتي تعدل من ملابسها، وطلبت أن أصطحبها إلى حفل الجمعية الخيري .. كان وقتها ظهري يؤلمني. لما شكوت لها عجزي فجأة عن الحركة، أصرت؛ لأني لست عاجزًا . هل شفيت ؟ . ياه. أخيرًا المعجزة. أنا أنزل من وسط الهلال الفضي . أنا هبطت بسلام . أنا مشيت دون مساعدة . دون أن أتأبط ذراعي امرأتي العاريتين . فستانها أزرق مكشوف الصدر . وكان أولاد يصفعون الماء بأقدامهم الصغيرة . وجدتني أخطو بلا صعوبة . أخطو بين الدولاب والمرآة وباب الغرفة وباب الشقة . وجدتني أهبط الدرجات الثلاثين . هبطتُ جميع الدرجات. ياه . وهتفت في الشارع وأنا أقود السيارة بجنون: لا أصدق أنني نجوت. وكانت زوجتي سعيدة. وهتفتُ : لن تكوني وحدك بعد الآن يا عزيزتي الجميلة. أملك كل شيء . سوف

أسبح مرة أخرى . لن تذهبي إلـــى مكـــان وحدك يا عزيزتي . وبدت "جمعيـــة الأمـــل الصحي" فوق جبل كحصن أسطوري. نزلنا من السيارة .. وجاءت في نفـــس اللحظـــة سيارة حمراء كبيرة نزل منها رجـــل أنيـــق وطويل . حيا زوجتي وحدها وسبقنا ، ورغم دهشتي لتعدد المشاهد . فكرتُ في الرجـــل بحزن : تحيته لزوجتي صفعة حادة هـــوت على أنني اليسرى، وفكرت فـــي الابتســـامة التي بدت على شفتي زوجتي، وفكرت فـــي الرجوع . لكن تلقفتني رئيسة الجمعية المسنة المتصابية. رحبت بي وأغرقتني في أحاديث متشعبة.. وفجأة اكتشفت اختفـــاء زوجتـــي الجميلة ولم أر الرجل الطويل الأنيق . عندئذ عبثت بي يد خفية وتّرت أنفاسي . ورأيـــت فم المـــرأة المتصـــابية يطحننـــي بأســـنانه الصناعية . ومع ذلك وجدتني أتقدم من باب موصد . فتحته . آه .. سقطت ودرت فـــي

دوامة مـــن نظـــرات أصـــحاب المعـــاطف
البيضاء ، بينما التفّت زوارق الإنقاذ حـــولي
راسمة في الماء حلقات متعرجة"..

(٤)

.. آه جرس الباب . هل نمت ؟ مـــن يكـــون الزائـــر الليلي؟ يستخدم أيضًا يديه . من يكون ؟ . الأقدام المجهولة؟! ، وفتحت النور . التاسعة . تأخرت نصف ســـاعة . موعـــدها الثامنة والنصف . لم تأخرت ؟! ..

أتتبع صورة الحائط كأني أراها للمرة الأولى : الخطوط ونسب الألوان : تبدو حشرة غريبة تدنو من رقبـــة إنســـان لا يكلف نفسه مشقة الدفاع . فأسأل عن الصورة . أين ومتى كان الاختيار ؟ . أراها هكذا للمرة الأولى وكفى..

أعود إلى التفكير في أصحاب الخطوات الرتيبة غيـــر المرئية . من يكون ؟ من يكونون ؟ . فاشتعل في رأسي حلـــم الجمعية الحاد . استسلمت للحلم الرهيب لوقت طويـــل.. ثـــم نظرت في الساعة : تأخرتْ زوجتي ! . بـــاهرة زوجتـــي. لكنني رأيتهم ينظرون في صدر فستانها الأزرق المحبـــوك :

ينظرون بحرية . تأخرتْ . آه . لو يتعطل تفكيري إلى الأبد . لو أنام . لو أموت . أعشق نهاية أشرف على تفاصيلها؛ لأني أرفض المصير المفاجئ . فاجأني الألم الحاد المعجز وسط الموج وأنا في كامل لياقتي البدنية . تأخرت . وأنا دائم الترقب. ويجب على "جودو" أن يكف عن ممارسة لعبة الانتظار المميت . السبت موعده. بل الأحد . بل الاثنين . أيام الأسبوع السبعة . آه . في أي يوم يأتي "جودو" ؟ ، وفي أي يوم أتى؟ . آه . المعجزة وحدها . أريدها . المعجزة التي تدرأ عني هذا العذاب ، أو أتخلى فأصنع بيدي النهاية التي يتوقعون أن تحدث ..

أظلم الحجرة . لأن غشاوة ماء حجبت الرؤية . أغمض عيني.. موجة وموجة وموجة من الصفير تلطم أذني وأنا مغمض العينين..

المفتاح يدور في الباب . أنصت إلى الصوت .. هل عادت ؟ . نعم . العطر المميز يسبقها إليّ . بلا ثياب دخلت وتمشت بالحجرة. اقتربت من الفراش ثم استلقت صامتة إلى جواري يتحداني جسدها الأسمر . لم أتحرك. استمع بتركيز

إلى حفيف نفَسها : تتنفس بعمق ورتابة، ضـــمت ســـاقيها . لا حركة : نامت ..

حولت إليها رأسي : كان الوجه بريئًا وأملـــس . كـــان مكسوًا بارتياح لم ألحظه منذ حادث السباق . نبع العرق مـــن كل جسمي . غسلني. وكانت بطني منتفخة تدفعني بقسوة إلـــى الحمام .. هممت بطلب المعونة . لكن عدلت لما طالعني زنجي الحائط بابتسامة فهمتها بدت على شفتيه الغليظتين . دعوة إلى المحاورة ! وأسقط الزنجي عينيه على اللوحة العالمية : كانت الحشرة ما تزال تدنو بتصميم من الرقبة الغافلة . فنهضت إليه وخنقته وصحت فيه : يا زنجي إمـــا أن تنطـــق أو تســـكت . ضجت الحجرة بصيحتي . توقعت أن النائمة ستهب فزعة لكن فتحت عينيها وقالت بتراخ وتكسر .

- نم يا .. حبيبي .

فصرخت رافضًا :

- لا .

تسللت أصابعي إليها .. تحسستها . ضلت أصابعي في تضاريس جسدها الممتلئ بغير رغبة . فاحت منها بقايا عطر

مجهول اختلط بعطرها المميز . أنفي مجرب، وأصابعي خبيرة تؤكد وجود بصمات غريبة فوق تفاصيل الجسد . وقالت بتراخ وتكسر :

- مالك يا حبيبي . لم لا تنام ؟

جذبت رقبتها إليّ بعنف . حكت عيونها نفورا معذبا . حدثتني نفسي بأن أبصق . ثم صرخت فيها :

- أردت قتلي الليلة .

فتساءلت مستنكرة متعجبة :

- أنا ؟! .

- اختفيت مع الرجل الطويل الأنيق .

- أنا .. ؟!

- ورأيتك في أحضانه ..

- مجنون مجنون ..

- ولابد من كسر رقبتك .

وضغطت عنقها وهي مستسلمة . ورطن الزنجي بعبارات غير مفهومة تحثني على ارتكاب الجريمة ، لكن وجدت زوجتي تتخلى عن الاستسلام . جعلت تقاومني بقوة ومهارة .. ثم انتبهت فجأة بصوت "قرملة" السيارة .. جاءت زوجتي أخيراً ، فلم أتمكن من الإجهاز عليها ..

(٥)

سكت صوت محرك سيارة وقفت . يد فتحت الباب وأغلقته . يد ناعمة . زوجتي . هل عادت أخيرًا ؟ أقدام كثيرة تقطع المسافة إلى باب العمارة . يصعدون السلم ويصعدون كل يوم ألف مرة ومرة . هل عادت زوجتي؟ وأنظر في الساعة : الحادية عشرة والربع . أسمع . أسمع فأحسب الزمن الذي تستغرقه زوجتي من موقف السيارة بجوار باب العمارة حتى باب الشقة حتى الفراش. أسمع . همس وضحك وكلام غير مبين يواكب الأقدام المقبلة الصاعدة . أسمع ..

مضت دقيقتان . ثلاث . أربع . خمس . ست . سبع.. لم يفتح باب الشقة بعد .. لماذا ؟ السلم موطن الحركات غير المنظورة . من يشهد ؟! من يدين ؟! عشر دقائق . لماذا ؟ .

يوم . شهر . عام . دهر طويل . بطني منتفخة تستصرخني . آه . الفراش يتبلل بإرادتي . يا زنجي : انطق أو اسكت . ولا ترحمني أسنان العجوز الصناعية بكلام في سمعي لا أفهمه . لقد كانت في الحفل الخيري ترفع حاجبيها كثيرًا كقوادة محترفة.. لم لا تدخل زوجتي الآن حتى أستريح ؟ .

ودار المفتاح في الباب . أنصت لنقر الحذاء المدبب. الكعب عال ، والفستان ضيق محشورة فيه حشرًا، وها هو النور يملأ الصالة .. النقر المدبب يقبل ناحيتي . يدق بقسوة رأسي ؛ الخطوات المجهولة ما زالت تغزو وحدتي وعجزي .

غمر النور الحجرة . زوجتي عادت متهللة . ضاحكة. لم تكن هكذا منذ ساعات . تحييني وهي تدندن بلحن غريب لم أسمعه من قبل . تقطعه . تعتذر . تتحدث وتتحدث عن برنامج الليلة الحافل .. ساقاي ساقاي . هل أفقد الأمل إلى الأبد ؟! ..

الأسنان تنطبق وتنفرج وتنطبق . يتجمع البصاق كله الآن على طرف لساني . كنت أمتلك القوة والإرادة . وها هم الآن جميعًا يتحركون . كنت السباح الماهر العنيد . الآن أنتظر "المفقود" حتى يأتي . قال : السبت . بل الأحد. بل الاثنين ..

بل . بل . وفي الصباح . في الظهر . في العصر . في المساء. في الليل . وقال اليوم . بل غدًا . بل بعد غد .. وقال: لقد جاء . حدث ذلك بالأمس دون أن تراه . وأنا أقول : لم يعد يجدي الكلام . لم يعد يجدي سوى رصد أشباح الظلام ، ومحرك السيارة وتلك الأصوات المجهولة ، والأقدام الغامضة..

يناير ١٩٧٠

الصباح الأخير..

الصباح الأخير..

(١)

.. الفجر يغزونا معًا .. من الراديو تنبعث موسيقى إذاعة مجهولة .. أتغطى بدفئها الأمومي . زوجتي . تقول بعينيها الحزينتين : يشتد خوفي كلما ازدادت حركة الجنين. فأجذبها بحذر إلى أكثر . فتبكي . لكني لا أنطق. أخرس . وأذناي قد أصيبتا بالصمم ..

يعلو قليلاً صوت بكائها فأهمّ بالكلام . لكن ثمة من يأمر بالسكوت . فأسكت . لا وقت للكلام : العقربان داخل الحصار الذهبي لا يرحمان . المنبه الفسفوري . الوقت يسرع.

وسوف يتدلى الجسد الحي فجأة عاريًا في الظلام وفي الشمس والمطر في اهتزازة دائرية سريعة تطوق العنق ..

- كلمني .
- .....
- كلمني . ماذا تحب من الأسماء ؟

أنظر في بروز البطن . أشعر بالحركة . أغمض عيني: ما الحب ؟ . أنا أحب . أنا لا أكره .. "سيداتي آنساتي سادتي" . أنا مذيع سابق . البرنامج الثاني من القاهرة . "إليكم رائعة هوميروس . لنشهد الصراع الحافل في قصة اليوم" . كان هذا آخر برنامج أقدمه . سلمت نفسي لمنطقة التجنيد بورقة وصلتني . حاسمة لا تقبل التردد، فتسلمت ملابس صفراء بلون الرمال .

- كلمني . أنت لا تجيب .. اختر له اسماً .

تتخلى أصابعي عن شعرها الأسود الغزير : المنبه ذو السوار الذهبي يدق بعنف، أرى "أندرو ماك" تحمل الطفل وتودع زوجها "هيكتور" الموشك على مبارزة "أخيل" بطل الإغريق أمام أسوار طروادة . قلبي يدق مع دقات المنبه .

أدير مفتاح الراديو إلى أعلى لترتفع الضجة ويزداد الصخب . أحن إلى النوم . لم أنم منذ ولادتي . أنا تعب للغاية ..

تسلل صوتها منخفضًا من تحت ناقوس منكفئ .

- مبسوط ؟

- ....

- أنا أعد الأيام يومًا يومًا . أستعجل عودتك كلما رحلت .

أنظر في عينيها الدامعتين بدون كلام . المنبه فسفوري. العقرب الصغير على الرقم الابع . الكبير على الثاني عشـــر. الرابعة الآن . بعد ساعة يطلع الصبح الأول، وعليك أن تستعد للرحيل . المسافات طويلة . ويجب أن تكون هناك في الموعد المحدد .

- أنت لا تتكلم . أنا خائفة ..

أنا مخنوق . تخنقني الدموع . ثمة من يأمر بالنهوض . "انهض" فأنهض . "هيكتور" نهض . "ارتد ملابسك" . تســربل بدروعك . هيكتور فعل . ثم أرحل نحو الخطر المتحفز تحت أسوار طروادة . أنا أطيع ؛ هكذا فعل هيكتور العظيم، لمبارزة "أخيل" بطل الإغريق الشجاع ..

- أنا ماشي .

- تعال .

قالت بضراعة، فأعود لتمتلئ بها ذراعـــاي . أضـــمها مستجيبًا لدعوتها وضراعتها .. طـــروادة . طـــروادة . أهـــل طروادة جميعًا يعقدون آمالهم على بطلهم الشجاع هيكتـــور . تقول بهمس :

- سترحل .

أقول وأنا أنصت لصوت قذيفة غادرة عمياء أو مبصرة في سمعي .

- في قطار السادسة .. كالعادة .

- ياه ..

- سكت . قطعت لساني

- ....

- لم أشاهد معك ضوء النهار منذ وقت طويل .

دقات المنبه عنيفة خطيرة كطبول حـــروب الـــزنج .. ولساني مقطوع فلا أرد . أقوم . أرتـــدي بـــدلتي الصـــفراء العسكرية الرملية. ارتدى هيكتور دروعه . خفاش الظلام يتقدم

بغير عيون . أهمس في أذنيها بلا همس . حتى الهمس لا يخرج . تتوسط وحدها الفراش بنظرات زائغة. لكنني أتمكن من الهمس.

- أنا راجع .

همسي أسمع وقعه . يطن في أذني مثل قذيفة مندفعة غادرة، ثم عدت أقطع لساني مرة أخرى ..

أتقهقر . تقفز إلى ذراعي . بروز البطن بيننا . الوليد القادم المنتظر . ألمسه : أنا أبوه . هي أمه . تسقط الأذرع جميعًا في يأس . أبتعد . أخرج ضريرًا، أخرس، أصما لتضمني – في الشارع الصامت – تباشير الصباح الأول ..

(٢)

.. لا تنظر إلى الخلف . لا تقف . أسمع .. مشاهد الوداع لا تستهويني . خطواتي ثقيلة . حذائي العسكري ثقيل . أفكر في موسيقى الإذاعة المجهولة بينما كانت تبكي بين ذراعي . أفكر في البرنامج الأخير وفي الورقة الصغيرة التي جعلتني بحسم ارتدي الملابس الصفراء الرملية . "قف والتفت". لا . أحسن . أنت عظيم وبطل..

في شرفة الطابق الرابع وقفت "أنـدروماك" . أعـرف أعرف .. والبرودة قارسة . أعرف أعرف . تلوح "أندروماك" للبطل المخلص . أعرف أعرف والبرودة قارسة . قلبي لـيس حجرًا ولكنني لا أحب مشاهد الوداع ..

الأوتوبيس المفصلي الطويل يحملني الآن إلى رمسيس، يهرع إلى ميدان فرعون .. وصل . المحطـة ذات الطـراز الإسلامي الأزرق تبدو رائعة في الصباح الأول . هل أنسى ؟. صفارة الكومساري . صفّر بحسم . ففرمل السـائق الجـالس وسط الزنزانة الزجاجية. هل أنسى ؟..

يتخفف الأوتوبيس من الحمولة الثقيلة . يندفع الركـاب المسافرون تجاه باب المحطة : "اندفع الغزاة إلى أسوار المدينة المناضلة" .. هل أنسى ؟. تمثال رمسيس عملاق عظيم يـذكر بمجد حافل سابق . هل تحدث المعجزة ويتحرك التمثال العظيم ليدرأ عن المدينة جحافل الخطر ..

(٣)

.. يتجاوزونني دون حماس رغم أنهم يثبون بفزع إلى ساحة المحطة . "الغزاة المندفعون يقتربون من أسوار المدينـة

المناضلة" . صوتي عليل . أقدامهم ثقيلة لكنهم أسرع منـــي . مسافرون إلى مواقعهم مثلـــي . يعبـــرون البـــاب المفضـــض بخطوات واحدة، وبملابس رملية واحـــدة، وبرائحـــة مميـــزة واحدة. يعبرون بسرعة ليستقلوا القطار الأول المســـافر نحـــو الشرق إلى مواقع جبهة القناة . لكنني أتباطـــأ .. أفكـــر فـــي العودة. فما زالت "أندروماك" في الشرفة تحمل الجنين مودعة ومنتظرة ..

صفارة قطار السادسة تعلن عن قرب التحرك . لا . لن أركب . فتبرد أطرافي وتسخن . قطار السادسة لا . بل نعم . بل لا . محلي أسير . أتلكأ عن عمد . صـــورة "أنـــدروماك" بعيني . "البرنامج الثاني من القـــاهرة" . أنـــدروماك لا تمـــل الانتظار . زوجتي لا تمل . الطفل قادم قادم . لكن رحل أبوه ولم يعد . أنت يا ولدي بلا أب . داسته تحت الأسوار ســـنابك الجياد الوحشية . إعلان أسود عن بطل الأبطال الـــذي أنهـــى مراسم الوداع لمنازلة "أخيل" على أبواب طروادة ..

أفكر في الدنو من الرصيف الخامس : "بريام" الحزين يجلس فوق الرصيف الخامس . في عينيه فزع السنوات التسع.

يجب أن تنتهي الحرب لكن بانتصار المدينة المناضلة . يجب أن تراق من أجل النصر دماء الأبطال على عتبات المدينة المقدسة ، وأن يموت الأحبة حتى "هيكتور" العظيم . فزع "سكمندريوس" ابنه من خوذة الحرب وأمه تدفعه إليه . ضحك الأبوان في مرارة ...

الصفير الثاني . الباقي دقيقة . يجري خلف العربة الأخيرة الأسرع المتحمس . "أخيل" يتوعد وينذر . "اللعنة على باريس" ، اللعنة على "هيلين" : سببا الحرب المدمرة.. وتقول أندروماك : "إن آلافًا من الهواجس السوداء تضغط على قلبي، تحدثه بالعقبى الوخيمة" . لا وقت للخيار . يخرج "هيكتور" إلى "أخيل" مخلفًا وراءه كآبة المدينة . قلق المدينة. وتصيح "أندروماك" : "هيكتور ارجع لي . أنا لا أستغني عنك بأب أو أم أو أخ أو بمملكة يزين مفرقي تاجها المشرق" ..

آه . لا وقت للتنفس . حول الرقبة عجلات القطار المسافر . و"التحم البطلان في ضراوة" . تمنع القضبان المتوازية من وقوع الحادث المروع . أسرع واركب . لا. كن صريحًا . لا . "هيكتور" مات لتنغرز في حلقي مرارة بريام .

أنا وامرأتي الجميلة صنعنا طفلاً لن يراني. لكنني عائد عائد . "سيداتي آنساتي سادتي لنتابع المشاهد التالية" . هل تسمعون؟..

القطار يتحرك الآن ببطء وتثاقل . يزيد من الحركة والسرعة . أين العداء الأخير ليعدو خلفه ؟ . لا أحد . لا أتقدم. أتراجع . أستدير . أدق البلاط الأملس . الدرجات الأربع . أنزل . أنصت لوقع أقدامي . أنصت لموسيقى الفجر المجهولة. أعبر السور المفضض إلى الميدان . هل يعرفون ؟ . الغضب الحاد في ملامح الوجوه العابرة بي . يأتي أصحابها للسفر . القطار التالي : السابعة. لكن لن أسافر . لكن "الهارب" وصف صارخ يطاردك أينما حللت. آه . لقد تخلفت بإرادتي عن قطار السادسة .. أكان هيكتور عالمًا بالمصير ؟ :

"حلت علينا لحظة صمت أنستنا صياح رفيقنا المنهار. وكان صباح هادئ خلت سماؤه من الطائرات المغيرة ، وكانت الشمس دافئة . قلنا : لنبدأ يومًا آخر جديدًا . لكن ما لبث أن وتّرنا هياج صديقنا المنهار . عاد إلى صياحه مرة أخرى : اسمعوا .. اسمعوني .

إلى متى نقف هكذا مكتوفي الأيـــدي؟ إلـــى متى؟ سأغـــــزو وحدي هذا المجهول. ثـــم سكت فجأة ونظر فزعًا إلى الأفق الشـــرقي. نظرنا نحو الأفق الشرقي معه . عبرنا القناة بعيوننا. وكنا قد اعتدنا توقع الخطر من خلف الساتر العملاق . ظهرت الطائرات المعادية. انشقت السماء وغطســـت طـــائرة ضـــربت الموقع .. أسكتت رفيقنا وآخرين.. ثم جمـــع بعضنا الأجزاء والأشلاء . جعلوني أنظـــر، فتقيأت دمًا .. ثم لم أعـــد أرى شـــيئًا غيـــر الظلام والصمت ولون الموت. ثـــم أفقـــت وتكلمت ونمت . ثم صحوت لحظة ومـــت . أستمع في موتي لصراع آلهة الإلياذة علـــى شاطئ بحر طروادة الزاخر بسفن الإغريـــق الغازية . ومت في موتي وأنا أســـأل عـــن رفيقنا الذي أراد أن يغزو وحده هذا المجهول المخيف" .

(٤)

.. الشلالات السبع تتساقط في المربع البرتقالي تحت قدمي التمثال العظيم . تغريني البحيرة بالهبوط حتى القاع الأملس . "اخلع ملابسك واحصل على النهاية الجميلة" . فأسأل هذا الذي لا يكف عن إصدار الأوامر "هل الموت يحدث حقًا؟"..

أتسلق القاعدة والقدمين والساق والصدر حتى الرأس. أجلس فوق التاج الفرعوني أراقب الحركة من تحتي يغلفها ضوء الصباح المائل إلى الزرقة . مريح . لكن لم ترحني نظرات الجنود في القطار الراحل . كانوا يعلمون . أنا مذنب مذنب مذنب . هارب. كانوا يعلمون. اتشح الأمان بسواد لا مفر منه . كانوا يعلمون أنني مجرد هارب خائف من خطر الغزاة المتربصين .. آه . لن أقبل هذه الصفة التي ستصمني إلى الأبد . لكنني سئمت الدور الرتيب . وأكره الأمر "محلك سر" ..

قطار السادسة ولّى لكن قطار السابعة يوشك أن يحفزني بقسوة مماثلة . لا . لن أسافر . أنا هنا . هنا . باق.

لن أسافر . "البرنامج الثاني من القاهرة" . اسمع : هل ما زالت الجماهير تذكر الصوت الذي غاب ؟ ، فانزل وكفى ثرثـــرة . حاضر . لكنني أريد النوم أو الموت.

أنا تعبت . أنظر من فوق إلى القادمين يقصدون السفر. الجنود بخطواتهم الثقيلة وبملابسهم الرملية . هاهم يســـرعون نحو الباب إلى قطار الســـابعة الـــذي ينتظـــر . لكننـــي أرى "أندروماك" جالسة فوق أسوار المحطة الحديدية المفضضـــة . أنا قادم . وهذا "أخيل" يمثل بجثة هيكتور. البطـــل الصـــريع. أبخرة غضب المسافرين تتصاعد إليّ . تصـــل قمـــة التـــاج الفرعوني . البطل الشجاع مات . يسحله الآن "أخيل" ، بينمـــا تجلس أنت فوق الميدان . لكننـــي أفكـــر فـــي العـــودة إلـــى "أندروماك" . يسبقني إليها النهار . نهـــار النهـــار . وأقـــول بصوت مفعم بالفزع لا يسمعه أحد :

– هيا نشاهد سويًا النهار . بياض النهـــار . شـــمس النهـــار وظهره وعصره وغروبه .

ويرد عليّ صوتي :

– لا . البطل الشجاع مات ، بينما تجلس تثرثر فوق الميدان .

ويواصل الصوت آمراً:

– انزل : بريام المسكين حزين يقطع وحده المسافة إلى معسكر الغزاة بعيدًا عن الأسوار ليعود بجثمان البطل..

أتدحرج . أتهاوى لترتطم رأسي بالقاعدة الصلبة . تسيل عيناي وهي تواجه الساعة المرشوقة في ضلع الواجهة الزرقاء . يقترب الزمن من السابعة . آه . ومرت بي الملامح الواحدة والخطوات الواحدة والرائحة الواحدة . يجري الجنود . يدوسون الأرض .. أنهض وأجري خلف الأقدام الواحدة . الدرجات الأربع . المدخل . رصيف "بريام الحزين" . أقف . أستند إلى ضلع "الاستعلامات" البارد ..

عيناي على القطار المتأهب أحاول الخلاص من ألسنة بابل الغامضة . لا أفهم من البرج الآن غير الصياح الذي سكت. ولا أرى سوى الأجزاء والأشلاء التي كانت ذات يوم لرفيقنا الذي ضج وتمرد وأصابته مباشرة الطائرة الغاطسة ..

القطار يبدأ في السير البطيء . أنا لا أرى . "إليكم سيداتي آنساتي سادتي هذا المشهد الأخير" . وهكذا ذهب "بريام" الحزين إلى "أخيل" الشجاع فرقّ لشيخوخته ، وأسمع

أندروماك : إن آلافًا من الهواجس السوداء تضغط قلبي وتحدثه بالعقبى الوخيمة . القطار يتحرك أكثر . يزيد من سرعته. أنا أرى . أندروماك .. أندروماك . أتشبث أكثر بالحائط البارد . أسمع : ولد . بنت . ولد . سوف يحل الطفل الذي لم أختر له إلى الآن اسمًا بعد شهور ثلاثة. القطار يسرع أكثر. لقد اتسعت عينا زوجتي وسط الفراش وأنا خارج وحدي إلى الجو الرمادي صباح اليوم . وها هي المسافة الآن تتسع بين بداية الرصيف وآخر عربة. لكنني أتخلص فجأة من الضلع البارد وأقفز .. وأعدو لاهثاً لأمسك بمقبض العربة الأخيرة .

مارس ١٩٧٠

الجـــرم

الجـــوم

(١)

.. هذه المرة لا تفزع . عيونهم عليك ولا تراك . بريق النجوم والنسور معجزة تهرأت بسنابك القهر . قبـــل ســـطوع اللحظة الحرجة بالومض المخيف احتوتك راحة رائعة . غنيت ألمًا . أفهمتك اللحظة المضيئة أن النيزك الشارد نتيجة تغيـــر لفراغ لا يؤمن بنهاية للمدى ..

الآن هم الثلاثة في بؤرة الكلمة ليسودوا أحشاءك هـــدفًا سهلاً للرماة . بالكلمة يتكلمون . بالموت . بـــالموت يعـــرف المراقبون خارج "الملجـــأ العســـكرى" أن الخطـــأ مرفـــوض

مرفوض ، وأن علينا لو كررنا المحاولة أن نطلى بالسواد مقاتلنا بأيدينا . "الذي يهوى إلى الهاوية السحيقة لا يصعد" .. اتطلع إلى سقف "الملجأ المحكمة" . يسأل قائد الوحدة الجالس فى الوسط :

- لماذا هربت؟

انظر ناحيته ولا أجيب .. كأنى لم أسمعه .. فقال بصوت غاضب بينما شردت بعيداً عن "الملجأ" فمشيت فى شوارع العاصمة ، وفى الشارع الذى يضم مسكنى خلا منه زوجتى وابنتى . انتبه على صوته المحمل بالغضب ..

- تكلم . أنت لا تجيب على سؤالي ..

القائد رافض لصمتك المثير . أنت تكتفى بالنظر إليه يتوسط ضابطين . يرمقونك بعيون الدهشة والعجب . الأوسط ذو النسرين والنجمتين. هو القائد . الاثنان على يمينه ويساره بأربعة نسور وأربع نجمات . القائد يعود إلى الصياح :

- أنت مصمم على السكوت . أنت .... أنت ..

أنا لا أسمع . لأني أحشو بالقطن أذني . ولأن عيونكم عيون صقور جارحة فالكلام هراء وخداع . ولا فائدة منه.

والشرود هو الرد المناسب، ولا يهم أن تصدروا أي حكم عليّ. فأنا معترف بالجناية .

- شارد .... يا ....

بكل الغضب يرمي بقذائف . بركان فيزوف يتفجر بالحمم ويثير الذعر، فهبط من تحت قدمي جزء من الأرض . اضطرب . لكنني لم أنطق ..

- ....

- اقرأ عليه الجناية .

أمر القائد ذو النسرين والنجمتين الرجل الواقف خلفي كالجلاد . "مساعد أول" الوحدة . فأدى التحية للمرة الألف . كدم الأرض بكعبه الأيسر . أعرف . تكلم . انفتح "المسجل" . صوته كريه . خوار بقرى يتلو الواقعة . يعلمني بالتهمة . رذاذه يتطاير . يلتصق بقفاي ..

أتضايق . أهرب . أعرف قبل أن يقول . أسعى بنظراتي إلى سقف "الملجأ" العسكري الذي يضمنا .. في الأرض السابعة . مقبرة تقي الأحياء من ضربات الموت

المفاجئة . نحن نبعد عن سطح الأرض مئات الأميال . أسمع المساعد بصوته البقري يقول :

- الشاهد : يومية الغياب ويومية الحضور .

أعرف . لا مفر . أنت محاصر بمراسيم الحل السري. قناع الموت معد . وعليك أن تبني للخلاص فلكًا يطوى وصاياهم العشر. من الذي يخرجني إلى سطح المقبرة ؟ الحاجز المزعوم يعجزني عن تتبع النيزك الشارد..

الأوسط يتابع "الخوار" في صمت هادئ . أين الغضب؟. أنظر نحوه يتوسط الضابطين . تحمل أكتافهما أربعة نسور وأربع نجمات مطرزة . أرى في وجوه الثلاثة ملامح طيبة يعرفونني جيدًا . كم جمعتنا ليال عديدة نتحدث ونتناقش بعد أن تسكن الحياة عدا حركة حراس الليل المدججين بالأسلحة . لكن الأوسط رغم الهدوء البادي ينطق بهدوء أكثر. يصدر قراره القاتل واصفًا التهمة الموجهة إليّ.

- هروب من الميدان وقت الحرب .

فرددت الكلمات بصوت لم يسمعه سواي كلمة كلمة: هروب .. من .. الميدان .. وقت .. الحرب . وكررت

الكلمات . لكنني أهتز . أحسست بملاكم ماهر يسدد لقلبي أعتى الضربات . فأحتمي . أحتمي بحبال الحلبة مدافعًا متراجعًا لكن دون جدوى .. اهتززت جسدًا مكدودًا بفرامل القطار المثقل الداخل إلى محطة العاصمة ..

"بدوت جنديًا نظيفًا إلى حد ما بمساعدة زملائي بالموقع . تمنوا لي وقتًا طيبًا سعيدًا مع زوجتي الجميلة وابنتي الصغيرة ذات السنوات الأربع . ودعني القائد وبعض ضباط الموقع بابتسامة واسعة . منحني القائد "إجازة خاصة" مكافأة على نجاحي في رصد وإصابة الهدف المغير على الموقع . طائرة رهيبة . تحطمت تمامًا بالقرب من الموقع . وقال لي القائد : أنت بطل يعتز بك "السلاح" ويفخر بك الوطب. شكرته ..

ركبت قطار المساء الذي بدأ الحركة في الرابعة ووصل في السابعة أو الثامنة أو التاسعة . أو . أو . المهم وصل . كان بطيئًا

للغاية. خطر بذهني خلال سيره البطيء أن أغادره وأقطع المسافة الباقية بقدمي: ابنتي الصغيرة، وزوجتي الجميلة ضوء متوهج وسط المفرقعات والشظايا وتحت الدخان الخانق ..

دست بنشاط أعقاب العشرين سيجارة التي دخنتها، ووثبت من القطار، إلى باب المحطة، إلى الشارع، إلى السلم، إلى الباب.. إلى باب مسكنى خفق قلبي خفقة عنيفة تعجبت لها قبل أن أدير المفتاح في كالون الباب. دخلت. توترت ضربات قلبي ويدي تلامس برودة مقابض أبواب الحجرات الثلاث . الشقة خالية ! . آلمتني ضربات قلبي وأنا أطرق باب الشقة المجاورة الذي فتحته جارتنا العروس الحسناء وهي تبتسم ابتسامة غامضة . كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وأنا أتسلم منها ابنتي ذات السنوات الأربع . كانت نائمة . وضعتها في

السرير وتمددت إلى جوارها أشعل سيجارة ، وسيجارة بغير أن أشد منها نفسًا .

فكرت وأنا أسحب دخان السيجارة الثالثة : عندما سألتُ جارتنا العروس الحسناء عن المكان الذي ذهبت إليه زوجتي – ارتجف على شفتيها الجواب ولم تنظر في عيني. ثم قالت هاربة من نظراتي ومن أسئلتي : سلمتنى البنت وخرجت منذ الصباح..

تنبهتُ على حركة المفتاح وضوء الصالة ودقات الكعب . كان الليل يدخل في الواحدة حين نهضت إليها بجميع أدوات الاستفهام .. لم تسرع إلى حضني كما كانت تفعل ؛ تصلبت تمامًا في منتصف الحجرة أمام السرير ، فتقدمت أنا واحتضنتها.. لون عينيها دائمًا في ذهني ، ورثته ابنتنا ذات السنوات الأربع . صدقت سبب الخروج

وسبب التـأخير . وكانـت ابنتنـا نائمـة.. تمددنا.. قالت باكية بغير دموع : أنا لا أنام الليل ولا يهنأ لي في النهار بال .

نمنا . لـم أهـتم بابتسـامة جـارتي الغامضة . لكنني ما لبثت أن صحوت فزعًا. عاد البطل المظفر .. وفكرت : رأيتني أقف في وسط الذهن حاملاً ابنتي عائدًا بها وحدي دون زوجتى إلى الشقة الخالية ، ثـم نمـت دون نوم فى انتظارها لأراني أرصد الطائرة المغيرة وأسقطها ، ثم انفتحت علـيّ أفـواه تبارك وتهنئ بالصوت فـي الصـورة فـي الصدى في الدمار فـي دخـان السـيجارة تضاءلت حتى الفلتر الأبيض" ..

(٢)

- العقوبة : الرمي بالرصاص .

- ....

- تحتاج إلى إيضاح أكثر ؟!

الأوسط القائد . حدد العقوبة . الإعدام بالرصاص جزاء الهارب من الميدان .

- تريد أن تقول شيئًا ؟

لا أريد ولا أحب . وليس لي أي طلب . لكن في سري. لست غاضبًا ولست محتجًا . فبالحق نطقت . بالحق . مرحبًا بالجزاء الحاسم . الآن يا سيدي لست أشك في صلاحيتك لقيادة العالم . الآن رقبتي ملككم . وقلبي تحتكم. أنت يا سيدي أحق بالوسام المنزوع من الشراسة. أسيرًا أكون لكم . أنت حكيم الحكماء ونابليون واسكندر المقدوني. لكن من فضلك: لا تقترب من خرافة الوصايا فأنا أعرف. المهم أنك بالحق نطقت . فمرحبًا..

النيزك الشارد ليس يمضي إلى غير هدف . لم ؟ .. والأمر الذي لا يقنعني هو لماذا تحاولون إعفائي من التهمة؟. حقًا أنا أسقطت الطائرة لكن ربما كان ذلك صدفة.. ربما كان غيري سيفعل ..

المغامرة الأولى والثانية والثالثة . هروب . هروب. هروب .. ثلاث مرات هروب ومع ذلك تعتقدون أنني ما زلت بطلاً . رغم أني لست أكثر من ذرة رمل . بل لست شيئًا

مذكورًا على الإطلاق. فاسحقوا الذرة . وأنا مستعد . ألبس قناع اللحظة المناسبة . قناع الموت الجزاء . هل يسمعون ؟!..

- ومع ذلك سأعفو عنك . سأعطيك آخر فرصة لأنك بطل أسقطت حتى الآن ثلاث طائرات مهاجمة .

- لا ..

أخيرًا أرد . أحرر لساني . أنطق بالغضب . أعترض. فتتحرك جفون العيون الصقرية . توتر جبهاتهم متشابه . "لا . لا . وألف" لا أريد دون نطق ومن غير أن أرى . تغطي عيني طبقة ماء كثيفة لا تسيل .. لاحظها الضباط الثلاثة لأننى رأيت فى عيونهم العطف والتعاطف..

(٣)

لا أتمكن من الصعود إلى سطح الملجأ . القاعة الرسمية لأحسب المسافة الهائلة بين السطح والقاع . أفكر في رتابة صوت قطار الرابعة الخامسة السادسة .. أفكر في ليل الوحدة، وفي قول جارتي الحسناء ذات الابتسامة الغامضة :

– خرجت .. منذ .. الصباح .

لماذا تبتسم دائمًا جارتي الحسناء .. أنـــت يا جـارة عرفـت وتعرفين كل الوقائع . أنت عيني التي ترى وأذنـي التي تسمع . فلماذا لا تصرحين يا جارتي الحسناء ؟ ولمـاذا يتردد الجزاء بطيئاً على الذهن كلمة بعد كلمة بعد كلمة بعـد كلمة بعد كلمة : "هروب . من . الميدان. وقت . الحـرب" . ومع ذلك فأنا مستعد . وجهي مستعد لقناع اللحظـة السـوداء للموت رميا بالرصاص ..

(٤)

أتيقظ. بصدى يأمرني بالحركة، صـاعدا مـن جـوف سرداب تحت الأرض السّابعة . الرماة ينتظرون . لكن أمـر القائد بالانصراف :

- انصراف ..

نفذ الأمر المساعد أول الهمام ذو الخـوار البقـري . ضرب الأرض بكعبه الأيسر وصاح بي آمرًا وحاسمًا :

- للخلف در .. مارش ..

فتصدع بالأمر الحاد قدماي ، لتصعد بي من الملجـأ.. درجة . درجة . درجة . درجـة .. فـلا أرى النسـور ولا

النجوم. أمشي أمام "المساعد الأول" مخترقًا دروب الموقع بإيقاع أراده ويتحكم فيه . أنصرف عنه لأتأمل عددًا من الجنود يتابعون المشهد في حزن وفضول من مواقعهم الدفاعية . أبتسم لهم ابتسامة أغالب بها إحساسي الحاد بقهر لم أجربه من قبل . أقول بعيني : اطمئنوا . وصفقوا للبطل. فهم لم يتكلموا بالموت. بعمر آدم حكموا ..

(٥)

ها هو الفضول يتحول عنك . تتجه الأنظار إلى الشرق الخطير تأتي منه طائرتان نحو المواقع المتأهبة، الهدفان مرصودان . صاح صوت بي وبالمواقع : غارة . غارة . غارة. أنا نتوء بارز وهدف سهل . لا أنصت للأصوات المحذرة .. لكن جندي يندفع نحوي ويسحبني إلى الموقع الآمن. فلماذا ؟ أنا أرحب بالموت . وسيان عندي أن يكون بانتظاري مَن لا ينام الليل والنهار أو لا يكون . لكن هل كانت جارتي الحسناء صادقة عندما عرّضت عيناها وملامحها بأن زوجتي كثيرًا ما تغيب عن المنزل في غيابي ؟ . إن "الخيانة" صفة فضفاضة بحاجة إلى "حكمة" سليمان كي أثبتها أو أنفيها . ولكن

أين هذه الحكمة التي بالقطع لن تأتيك، ولم يتملكها من قبل أحد؟. وما دمت لن تحصل عليها فالهروب هو الطريقة الواضحة لاختبار معنى نظرات جارتي الحسناء ذات الملامح القاتلة..

(٦)

أجدني أشعر بالخوف وأنا أفكر في إجراء مغامرة الذهاب . أهبط إلى قاع "حفرة برميلية" بعد أن شكرت الجندي الذي جذبني إلى موقعه الحصين .. أتابع صمتاً صاخبًا بعد أن طاردت المدافع الطائرتين اللتين أسرعتا بالهرب . لكن حتمًا ستأتي موجة أخرى . أعرف ذلك وأشعر به . حزنت لأنني لست في موقعي ، لكن ذهني كان قد بدأ رحلة السفر إلى العاصمة ..

(٧)

أنتظر . ستأتي الطائرات في الموجة الثاني قصفًا مركزًا، ومعها غراب قابيل . يأمرني صوت بلزوم القاع لأنجو فأفعل وأحمي رأسي ليمكنني الرحيل أو الهروب لأعرف ما يجري ببيتي البعيد القريب : قالت هناك وهنا: أنت المجد، أنت

ابتسامة الحياة . وقالت هناك وهنا : أنتظرك بقلب لا يسأم الليل والنهار .. وقالوا هنا وهناك : أنت رائع وعظيم وبطل . وقالت هناك وهنا : أنت معي يا حبيبي طول الوقت . وقالوا هنا وهناك: أنت البركة أنت.. أنت.. أنا في كل مكان ذرة رمل طيرتها رياح ليل الواحدة..

"احتجت العاصمة لوطأة الحر وأنا أسلك الشوارع بحثاً عن زوجتي . ابنتي معها هذه المرة . رمال النهار الحارقة في الصحراء لا تزورها نقطة ظل . لم أسأل جارتي الحسناء عنهما ذلك المساء . نادتني هي وأنا أغلق الباب خلفي فلم أرد . طرقت البَاب . ولم أفتح . زاد الطرق ولم أفتح . صمّمتْ : كسرت الباب أو اخترقته . لا أدري . وجدتها في الصالة تحدثني عن الرائحة التي فاحت في الشارع والحي والمدينة . أغمضت عيني وسددت أذني في لحظة طويلة انهالت فيها ضربات الملاكم الماهر، بتركيز ومثابرة منه، وبتشتت وتثاقل

مني. حتى حبال الحلبة لم أشأ الاحتماء بها . لكني وأنا مغمض العينين مددت يدي وعبثت بصدرها على مرأى ومسمع من زوجها الحي . ثم ركلتها ومضيت مطعوناً بنظرات جريئة في الشارع لا ترحمني . نادت جارتي من جميع النوافذ فلم أجب . أكره الكلام . وعند عودتي في منتصف الليل لم تكن زوجتي قد عادت . ودخلت جارتي دون أن تطرق الباب.. اخترقته. اعتذرت بعينين جريئتين وبابتسامة غامضة. أثارتني فصفعتها. لم تغضب .. كررت الاعتذار بنفس الجرأة والغموض . فصفعتها .. ثم صالحتها لما غاب منها معنى العينين والغموض المثير. ولكنني وأنا في ذروة التهيؤ أن غادرت جريًا مسكني . ثم وجدتني أتعثر وأنا أهبط السلم . ثم رأيتني أسقط ميتاً وحدي في ظلام الثانية" على صوت جارتي الحسناء يندلع من جميع النوافذ" ..

(٨)

أرتكز في حفرة الفرد "البرميلية" واضعًا يدي فوق رأسي . قادمون لا شك بالموجة الثانية . أنزل يدي وأثبت عيني في رقعة دائرية بدت من السماء غير صافية ، مطابقة لفوهة الحفرة ..

أسمع هدير القنابل الساقطة وطلقات المدافع الصاعدة . عادوا . أسمع القصف القريب . أشعر بخوف لم يراودني من قبل . شرخ الضجيج الهائل الصلابة المزعومة . هل تسمع ؟ . عليك الآن أن تصعد لمواجهة قبائل قابيل . وأنظر أكثر . النيزك الشارد ليس يمضي إلى غير غاية . إنه داخل المدى المرسوم وليس خارجه ..

القصف يشتد ويتواصل وأنت بعيد عن موقعك قابع في حفرتك . فهل ستنجو من العيون التي ترمقك في الذهاب والغدو؟. الإدانة على أطراف الألسنة . فأنت مذنب مذنب رغم الهدير ومشاهد الدمار . مذنب مذنب رغم انتهاء الغارة واتجاه الطائرات المغيرة نحو الشرق ..

أخرج من الحفرة . وأجلس على الحافة تحت السحب الدخانية . أصيح بكل الصوت : أنا مذنب مذنب مذنب . لكن

صوتي لم يسمعه أحد . يضيع ويتلاشى بضجة قطار الليل يسلمني إلى مسكني الذي ضربه الحذر والغموض ..

أضحك عندما لم أجد أحدًا يسمعني . أضحك وأبكي بسعادة وسذاجة وجهل ابنتي ذات السنوات الأربع .. أراها ضائعة في ليالي المدينة الحافلة بالأنوار والسمر والطرب..

أسقط في الحفرة بإرادتي في لحظة استماعي إلى ثناء زوجتي الجميلة على بطولتي الفريدة . قالت هناك وهنا : أنت عظيم وأنت ابتسامة الحياة . أنت البطل ، فهيا لتشارك وتدفع الخطر . لكني أتشبث بالقاع . أفكر في المشاهد والكلام . أصعد بعيني إلى الرقعة الدائرية المطابقة لفوهة الحفرة .. أسمعهم هنا وهناك يغالون في الثناء وأراهم يقدمون الهدايا ويذبحون القرابين . فأنهض وأتسلق الجدار الدائري . عيناي مثبتتان على الحافة الدائرية أغادر الحفرة . أتجه سريعاً إلى موقع مدفعي أصل إليه التصق به . سوف أسقط بمهارتي وغضبي الطائرة المغيرة . لكن لابد من إثبات الخيانة أو نفيها بالمغامرة الرابعة .

أبريل ١٩٧١

الفهرس

الفهرس

م	القصة	الصفحة
١	الفارس والعسكـــرى	٧
٢	أغنيـــــــــة	٣٧
٣	المفقـــــــود	٥٧
٤	الصباح الأخيـــر	٧٧
٥	الجـــــــرح	٩٥
٦	الفهرس	١١٧

كتب أخرى للمؤلف

أولاً- الإبداع القصصى والروائى:

أ- المجموعات القصصية :

- **الجرح:** مجموعة قصصية، ط (١) لجنة النشر للجامعيين، ١٩٧١، ط (٢)، الأنجلو المصرية-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨.

- **الكلام:** مجموعة قصصية، ط(١) دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١، ط(٢) الآداب-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨ ، ط(٤) بورصة الكتب ، ٢٠١٣ .

- **أمواج الفردوس:** مجموعة قصصية، ط(١) الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥، ط(٢) دار الإبداع ٢٠٠٩.

- **يـــــوم:** قصص، ط(١) أجيال- الجيزة، ٢٠٠٨.

- **الصياح فى الوديان :** بورصة الكتب، القاهرة ، ٢٠١٣ .

ب- الروايات:

- **سلوى الروح:** ط(١) مكتبة صقر ، طنطا ، ١٩٦٠ ، وط(٢)، دار الإبداع ، القاهرة ، ٢٠٠٧.

- **العائد بالحب:** ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٦، وط(٢) أجيال – الجيزة، ٢٠٠٨.

- **فوق الأحزان:** ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٨، وط(٢) إيزيس ، المنصورة ، ٢٠١٢.

- **صخب الهمس:** (ط١) دار الإبداع – القاهرة، ٢٠٠٩، وط(٢) بورصة الكتب ، القاهرة ، ٢٠١١.

- **حدائق الخريف :** ط(١) بورصة الكتب ، القاهرة ، ٢٠١٢.

- **تحت الأحزان:** ط(١) بورصة الكتب – القاهرة ، ٢٠١٣ .

ثانياً: الكتب :

١. فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ. ط(١) مكتبة أم القرى، الكويت، ١٩٨٤، ط(٢) الأنجلو المصرية ١٩٨٨.

٢. في البلاغة العربية (علم البيان). ط (١)، الأنجلو المصرية ١٩٨٨.

٣. قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم. الأنجلو المصرية ١٩٨٩ .

٤. تذوق الفن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي. الأنجلو المصرية ١٩٨٩ .

٥. في البلاغة العربية (علم المعاني). ط (١)، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩١.

٦. مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي. الأنجلو المصرية ١٩٩١، ط ٢ ، بورصة الكتب ودار السياب بلندن ٢٠١١.

٧. الخطاب النفسي في النقد العربي القديم، ط(١) ١٩٩٣ مكتبة الأنجلو المصرية، ط(٢) ٢٠٠١ مكتبة الآداب، ط(٣)، مكتبة الآداب ٢٠٠٦، ط(٤) بورصة الكتب ودار السياب بلندن.

٨. فاعلية التعاقب في الشعر العربي الحديث. الأنجلو المصرية ١٩٩٥.

٩. جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر. ط(١) مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٥، ط(٢)، الانجلو المصرية ١٩٩٩.

١٠. الصنعة الفنية في التراث النقدي. ط (١)، مركز الحضارة العربية ١٩٩٩.

١١. طاقات الشعر في التراث النقدي. ط(١) الأنجلو المصرية ١٩٩٩، وط٢ مكتبة الآداب، ٢٠٠٧ .

١٢. إحكام النص الشعري في الموروث النقدي والبلاغي. ط(١) الأنجلو المصرية ٢٠٠٠.

١٣. نظرية الإبداع الشعري عند النواجي. ط (١)، الأنجلو المصرية ٢٠٠٠.

١٤. تجليات الإبداع الأدبي: دراسات في الشعر والقصة والمسرحية. ط(١) مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٢.

١٥. أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق. ط (١)، مكتبة الآداب ٢٠٠٣ .

١٦. الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق. ط (١)، مكتبة الآداب ٢٠٠٣.

١٧. النثر الفني في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي. ط (١)، الأنجلو المصرية ٢٠٠٣.

١٨. الشعر العربي في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي. ط (١)، الأنجلو المصرية ٢٠٠٣.

١٩. البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦. الأنجلو المصرية ٢٠٠٤ .

٢٠. مرايا التجلي : رؤى نقدية كاشفة.ط(١) الأنجلو المصرية ٢٠٠٥ .

٢١. فيض القلم: مقالات في الثقافة والأدب. ط١، الأنجلو المصرية ٢٠٠٥.

٢٢. نجيب محفوظ حالما بالقمر. ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦.

٢٣. الأداء التبادلى فى الشعر العربى ، مكتبة الآداب ، ط(١) ، ٢٠١٠ .

٢٤.لعبة الضمائر فى قصص وروايات نجيب محفوظ ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١١.

٢٥.الخطاب الرئاسى فى الأدب العربى ، مكتبة بورصة الكتب ، ٢٠١٣.

٢٦.الرسالة الرئاسية فى الأدب العربى ، مكتبة بورصة الكتب ، ٢٠١٣ .

٢٧.تقنيات السرد الشعرى فى الشعر العربى الحديث ، مكتبة بورصة الكتب، ٢٠١٣ .

٢٨.الرسالة الرئاسية فى الأدب العربى ، مكتبة بورصة الكتب ، (تحت الطبع) .

الناشـــــــر

مكتبة

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣- ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

- ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩